

أبو حنيفة

يظهر الحرية والتسامح في الإسلام

عبد الجليل الجندى



دار المعارف

التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

تأليف الأستاذ

عبد الحليم الجندى

الكتاب الثانى والثلاثون
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الامام الأعظم لأهل الاسلام .

واذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثا ضخما في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأي وحده جحفا لجبا . فليس كهذا الامام مصداقا لهذا الكلام .

فالى الجيل الذى يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالى للحرية والشجاعة والكفاح .

ان أبصارنا فى أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه الى المستقبل والى الماضى معا ، لأن الماضى مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فلا تقبل على المجهول الا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم ، و لاند حياض الغير الا اذا نهلنا من مصادرها وارتويننا ، واذا كنا الى اليوم لم نعترف من كنوزنا الزاخرة الا حفنات ، فلنرجع البصر كرات الى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج اذا تحققت المناعة بانهاض القوى الذاتية للجسم الحى .

لنقل للمتريدين مقالة البحارة فى سفينة بالمحيط الأطلسى للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا فى

طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائما .. « ألقوا دلوكم حيث أنتم » حتى اذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذبا فراتا لذة للشاربين ، اذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزرخ الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها الا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الاسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الاسلام من ردة المرتدين فكانت يده في حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

واذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقفه الستين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الاسلام والامام الأعظم للأئمة وللمشترعين ، فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية ، بالعلم وبالقدوة ، الى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جلت للناس عمله فى بناية الحضارة الاسلامية وحياطتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير فى الحياة الدنيا اذا ازينت لهم بمصباح الفقيه .

ولما تعارض الفكر والسلطان ، أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا .

ألا ان لنا فى الامام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيا فى التضحيات ، ونحن فى مفترق الطرق . فلنقتد بهداه ، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب

الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن افلاسها في الحرين الأخيرتين لخلوها
من عنصر الروح .

لنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .
لقد اعتز الاسلام بأسبابه ، عندما استمسك أبناؤه بآدابه ، فلما
ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .
وبحسب القارىء هذا المثل للرجل العظيم الذى أجرينا ذكره على
الصفحات التالية .

الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التي لم ينفرد عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا
كالهجر الطالع واملأوا آفاق الوري بالنور »

لتربية

أقبل السيد في تؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السميت عظيم
الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة ، في وجهه أثر من السجود ،
لا يلتفت اذا مشى يمنة أو يسرة ، يضع المسك من أردانه على القرب وعلى
البعد حتى ليشيع الأرج اذا خرج من داره فتعرف أنه القادم اليك قبل أن
تراه .

فاذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسا عليه بزة فاخرة تباهى بذوق
صاحبها في قماشها وطرارها ، كأن قماشها تخير لنفسه أحسن مالدیه، فاجتمع
ذوق المشتري وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوة طويلة
سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، في زمن كانت فيه ثمانية أرطال
سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم،
ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم بل الكبش
بدرهم .. !

ومن جبة سنجاب الى جبة ثعلب يصلى فيها ، الى جبة فنك « نوع من
جباء الثعلب التركي » في زمن لم يك يلبس الفنك فيه الا الأقيال والدهاقين
والسروات ، اذا ألفت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس
أو من على شاكلة ابن عباس : ابن عم النبي ، ونائب أمير المؤمنين على ،
والجد الأعلى لهرون الرشيد .

هذا السيد الذي ينم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام
في قمة الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو
الشجاعة في عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة ، اذا سمع اللغو
أعرض عنه ، هيوبا لا يتكلم الا جوابا ، حتى اذا دعت الى الحديث دواعيه
افترت شفتاه عن ثنتين نائتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكا
من الملائكة يوحى اليه ! مضرب المثل في وفائه ونداه ، وبسطه وايناسه ،
وحده على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند
الله خير من البيع والتجارة ، رزقه ربه رزقا حسنا فجعله كله زلفى لله
وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية في الدنيا وفي
الدين .

فمن ذلك الذى هو كل ذلك .. ؟

انه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . الذى يتبين عقله من منطقته ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر تتردد عباراته الى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة فتتردد أصداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى بيت المقدس وفى البيت الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فاذا ذهب الى المسجد انجفل الحضور اليه . يلتمسون وقع الدر من فيه ، يطالعهم كل آن بجلال العلم الذى ينحنى له الأفذاذ من العلماء . ولو آتيت للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا — بعد رسول الله وبضعة من صحبه — هو أخلد الرجال فى تاريخ الاسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الاسلامية حضارة يتحصل فى كلمة يسيرة المبني كبيرة المعنى هي : « أرجح الاقوال من مذهب أبى حنيفة » الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان ، وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى التجارة وفى الملك ، وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء يسموان باسمه فى معارج الخلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن . وينشئ مدرسة الرأى فى الاسلام لتكون أم الفقه الاسلامى ومنبعه على مر الدهور .

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدره اليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده فى الأفغان — فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تميم ، فهو باسمه سمي ملك من الملوك فى العراق « النعمان بن المنذر » وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة

كأتون مستعر ، وكان أمير العراق في طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفي ، رجلاً ما يزال اسمه يجرى في التاريخ العربي بما يجرى به اسم نيرون في التاريخ الغربي ، فالنعمان لم يسلخ في بواكير حياته ليلة واحدة ولا نهرا دون أن تصطك مسامعه بأحداث هذا الطاغوت الناشئة برائته في أعناق جبرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم في العراق عامة والكوفة خاصة - وحمل الطاغية في عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل في سنة ٩٥ شهيدا « مات .. ما على ظهر الأرض رجل الا ويحتاج الى عله » هو سعيد ابن جبير . ومن بعد ذلك بعام في سنة ٩٦ مات أستاذ العراق ابراهيم النخعي مختفيا عن عيونه ... !

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه اليه جبار السماء فرحل الى الدار الآخرة مخلقا في الدار الفانية أحداث ما سيه .

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضي الكوفة وزعيم محدثيها في عصره الامام الشعبي . فلما مر به يوما دعاه قائلاً : الى من تختلف؟! قال : « أختلف الى السوق » وسمى له أستاذه في السوق . قال الشعبي « لم أعن الاختلاف الى السوق بل عنيت الاختلاف الى العلماء » قال « اني قليل الاختلاف اليهم » قال الشعبي « عليك بالنظر في العلم ، ومجالسة العلماء ، فاني أرى فيك يقظة وحركة » . ووقع في قلبه من قوله وترك الاختلاف الى السوق وأخذ في العلم منذ حداته الباكرة .

بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد ، والجدال في العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل انه علم التشريح الفكري للمسائل المسلمة لانكارها أو اقرارها بالدليل العقلي .

وكان العراق اقليما مستوفزا يدفع كل شيء فيه الى شبوب الخواطر . وفي الطبيعة البشرية اتجاه غريزي للدفاع عن النفس يدفعها الى الثورة على العسف ، مواجهة ان استطاعت ، ومن حواليا اذا هي لم تستطع ، فتفرغ

شحنها من الحساسة في اتجاهات يظهر بادی الرأي أنها لا تست بسبب الى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها في الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار

ولقد يظهر من ذلك أن الاقبال على الجدل انما هو في الواقع اقبال على النضال ، اقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفتن ولم يفض في الخلافات العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفى بأن يقارب السلطان ، وانما نزل الى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته في بلد كانت السياسة فيه هي الخبز اليومي يطعمه كل كوفي .

وسرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح في كهولته يصعد برأيه في شجاعة دونها شجاعة السيوف

قالوا رأى النعمان في حادثته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين — منهم أنس بن مالك — وانه سمع منه حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث « الدال على الخير كفاحه » وحديث أن الله تعالى يحب اغاثة اللهفان . وقالوا انه لم يسمع من الصحابة أحدا ، وانما تمحضت حادثته لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه الى الأسفار في سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ في « الكلام » مبلغا يشار اليه فيه بالبنان أو كما قال : « كنت أعطيت جدلا في الكلام ، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير ، فدخلتها نيفا وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظنا أن علم الكلام أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملي كان حقيقا أن يغير مجراه وأن يهديه الى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وخلق بمثله أن ينصرف الى ما ينفع الناس فيهجروا المتكلمين الى الفقهاء أو كما قال « فلما مضى مدة من عسرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين . وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيما الصالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم .. »

كان فتى ذواقة يختار من كل شيء أحسنه . وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس . وليس اذن الا الحلقة المجاورة لأنها أكبر الحلق ، وأستاذها أكبر الأساتذة : أبو اسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأشعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال « تعلم العلم » قال « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى الغداة فيخطئ الحفظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوما من مجلسه فقال حماد لجاره « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه .. » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد « كنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى . » .

لم يلبث الا قليلا حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بازائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى أن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة الى أى الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس الى قلب الجد هو الحفيد . لكنه أجابه : الى أبى حنيفة ولو أمكننى أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظا من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوما بالعشى تنازعه نفسه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسجد وأوى الى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقة ، فهاجته الذكر . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ

العظيم الذي قال عنه ابراهيم النخعي اذ سئل عن خلف بعده للناس انه
خلف حمادا للناس ، فكيف يترك النعمان حمادا ؟

كان حماد آية في الزهد والورع يفطر كل ليلة في شهر رمضان خمسين
انسانا فاذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوبا ثوبا ..

وانصرف الفتى كاسف البال منكسرا ولكنه كان منتصرا اذ انتشل
نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته في دأب وتعمق وحماسة زادته
بسطة في العلم وسعة في الفهم . حتى اذا نعى الى حماد بعض أهله بالبصرة
عن مالا لا وارث له دونه ، رحل الى البصرة شهران وأتاب أبا حنيفة في أن
يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ — الصغير — يستفتونه في أشياء لم
يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن
سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللإسلام : تلك أنه
دون اجاباته ليعرضها على أستاذه اثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها
أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور
الإسلامي يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضغطا اذ منعه الحياء العلمي أن
يعتد بأنه أصاب ضعف ما أخطأ ، وتعاقب عليه الجديدان في حلقة حماد ،
وهو يأخذ نفسه بالاستبحار في العلم وفي الدين ، واشتملت عليه عناية الله
تتعمده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر ، ودار الفلك دورات
وانسلخت سنوات ثمان لم يكده يترك فيهن أستاذه يوما ولا بعض يوم ، بل
ان كثيرا من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفا من الليل .

كان يسهر مع جماعة من أصحابه في دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ
ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح
الديك فاذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة « يالك
من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، ان شر الديكة ما صاح أول الليل »

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه ، وبلغ به استقلاله ،
ما بلغ بأستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد في مخالفته له حرجا . خرج معه مرة
يشيع جنازة فسأل رجل حمادا : انى على دابة سيور وقد غابت الشمس

ولست على الوضوء . قال له : تيسم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيسم وصل وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيسم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفي الوقت سعة ، طلبا للكمال بالطهارة الأصلية .

وهي أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نضجه العلمي ، واستوى في سن الأربعين - سن الرسل - فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .

ففى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد الى بارئها واجتمع الناس الى ابنه اسماعيل ، وكان أغلب علم اسماعيل فى التاريخ والأدب فلم يلق الناس عنده كبير غناء فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارها فى الفقه . لأنه لقى المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجا فجلس الناس الى أبى بكر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخلق بين المجلس وبين أبى حنيفة ، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذا وعلما بارعا فلزموه وتركوا سواه .

وجاء اسماعيل بن حماد نفسه واخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد ، ولم يزل الناس يختلفون اليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاية اليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علوا وغدت حلقة أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها فى الجواب وانصرفت وجوه الناس اليه وأكرمه الحكام والأشراف ، فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة وأسعدته المقادير . وكثر حساده .

وظلت فى نفسه ذكريات حماد يرددها مشيدا بندا على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول « انى لأعود لحماد مع أبوى » . بل انه ليخلد ذكره فى نفسه وفى داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم اسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه اسماعيل .

ذلك حماد أستاذه في الفقه ، وأبوه في الفكر ، وأولئك آباء حماد
الفكريون :

كان حماد تلميذا اعلىة الأستاذين . جرى اسمه في التاريخ على أنه راوية
ابراهيم النخعي وناهيك بابراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما نعى
اليه « هلك الرجل .. انه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ
صفو حديثنا الى فقه أهل بيته فسن كان مثله .. » وقال : . دفنتم أفقه
الناس . قيل ومن الحسن « الحسن البصري » . قال « أفقه من الحسن ومن
أهل البصرة ومن أهل الكوفة وأهل الحجاز » . فلقد كان في الواقع حلقة
الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين - أخذ عن خاله علقمة بن قيس
الذي كان الصحابة يستفتونه والذي قال عنه ابن عباس اذ مات .. « مات
ربانى العلم » كما أخذ عن ابن أخى علقمة الأسود بن يزيد النخعي وهذان
النخعيان أخذوا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة
أسلموا وأحد المهاجرين الى الحبشة والمدينة ، وقرين أبى بكر وعثمان وعمر
وعلى ، وصاحب النبى الذى قال فيه « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل
فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذي كان أخا في الفكر والرأى لعسر ابن
الخطاب .

قال عنه أبو موسى الأشعري « لا تسألونى ما دام هذا الجبر فيكم » .
ولما أرسله الى أهل الكوفة بعث اليهم يقول : « انى بعث اليكم عمار
ابن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ،
وأطيعوا واسمعوا قولهما » وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى « وقادر لعمار
ومساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر ! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه
الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد
أحفل أيام حياته ، وجرى في خلده وفي منهاجه نهج هذا المسلم السادس أو
المعلم الأول للكوفة ، اذا أبيع لنا أن نستعير هذا التعبير العربى عن أرسطو

... وبهذا تستبين صلة أبي حنيفة بالصحابة المقربين وبالاسلام عندما نشأ الاسلام .

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له في إحدى جوامع الكلم قال : « .. قال تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق في دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذارا ولا ثثارا .. ان سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، والا قاس مستغنيا عن الناس ، لا يميل الى طمع ، ولا يذكر الناس الا بخير .. » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرعة عينه في الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلي ويبكي ويدعو ربه قائلا : « رب ارحمني يوم يبعث عبادك ، وقني عذابك ، واغفر ذنوبي يوم يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة ، ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل ، ولطالما ذاعت في الناس أحاديث تقواه ، فقليل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في الليل ، وقيل انه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاما .

سئل عنه جار له شيعي فقال : « لا يمنعني خلافي اياه أن أقول فيه الحق انه لجاري منذ أربعين سنة ما بيني وبينه الا حائط ، ما كان يصيح كل ليلة الا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمى الوتد ، روى مسعر بن كدام أنه أتمه في مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة الا بوضوء العشاء الآخرة . كان اذا أراد أن يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثرا أن يسجد لله وهو في زينته ، ولو كان مستخفيا في الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه في بعض الأحيان اذ ينزع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم الى الصلاة .

فقيل له انما يلبس الناس هذا اللباس اذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا في مجمع عظيم فقال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء اذ هو لم يعلمه من الكتاب الا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه اليك تعظيما للقرآن » .

كان جهم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفي جوار داره اسكاف يحيى الليل منتشيا بلذات الشراب يعمل طول النهار حتى اذا جن الليل حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها فاذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه ، بشعر الشاعر :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمرو
أجرر في المجامع كل يوم فيا لله مظلمتى وصبرى

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له ان العسس اقتادوه الى السجن منذ ليال ، فصلى صلاة الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد الى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة الى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو الى داره والاسكاف الى جواره ، قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلاً : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا .

كان ذلك الصنيع لفظة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيها من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة في طلب العفو عن سكير . فالجواب في السؤال : انه رجل الفقه الذى لا يتحرك في قوالب من الجبس ، أو في مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحي

الذى لا يضيع جاره . فهدى نفسا كانت ترتع فى الفساد . وحسبك هذه
النهاية لتحفل بها عن البداية .

وقديما صنع مثله سعد بن أبى وقاص فاتح العراق فى صقع قريب من
أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابى الخمر فحبسه
سعد وجيء به ليقام عليه الحد .. فلما التقى الجبعان ناحت نفسه كنواح
الحسائم .

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا
فقال لامرأة سعد أطلقينى ولك - والله - ان سلسنى الله أن أرجع حتى
أضع رجلى فى القيد فقبلت السيدة عهده وحلت قيده .
فوثب على اللقاء ، فرس الأمير ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر
الجيش ، وخب لب القائد ، حتى خالوه ملكا من الملائكة المسومين أنزله الله
لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت
فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه فى سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير :
« كنت أشربها اذ يقام على الحد وأطهر منها فأما اذ بهرجتني - أهدرتني
باسقاط الحد - فوالله لا أشربها أبدا » .

كان أبو حنيفة اذا جمع المال تسابقت كفاه فى تفريقه .. ذلك تلميذ
يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة وهذا فقيه فى أسوأ حال . ان مال
أبى حنيفة ان لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، واذا أنفق أبو حنيفة
على عياله نفقة فليتصدق بثلها واذا اكتسى ثوبا جديدا فليكس بثل ثمنه
الشيوخ والعلماء .

أصاب رجل من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع
ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجذب الفناء
وصفر الأبناء فمس كبده من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد
الى مجلس أبى حنيفة حيث جلس مليا تقيسه الحاجة ويقعده الحياء . ثم
انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما
أخفى ، وعاد الى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها

بين قسماته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كفه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئا هو لك » . ورجع مسرعا لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدها خشية أن تكون صدقة ذمى - فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات - ولكن زوجته أهابت به « حل عقدها لعل الله يحل عقدتنا » .. فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة اليك من وجه حلال فليفرغ بالك .. »

وحبس ابراهيم بن عيينه - أخو سفيان بن عيينه الفقيه - على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتبابا . فلما صاروا الى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاءه رجل فقال ان على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عني ، ويؤخرني بها فكلهم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هي له أبرأته منها ، قال الذي عليه الدين : لا حاجة لي فيها : قال أبو حنيفة « ليست الحاجة لك ، وانما الحاجة لي قضيت » .

تلك صدقات ونفقات في المناسبات . لكن العطاء كان يجري جريان الزمان في كل الأيام ، اذ يأمر ولده حمادا بأن يشتري في كل يوم بعشرة دراهم خبزا يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف الى بابه ، وكان يجري على الكثير من أصحابه جراية في كل شهر عدا ما كان يواسيهم به في عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للسعوزين . لا يخاف عيلة ، ولا يستبقى لداره ولا لأهله الا قدر نفقتهم والباقي كله طعام للبائس والمعتز .. وفي ذلك يقول « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة الا أخرجته وانما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فمادونها نفقة ، ولولا أنى أخاف أن ألجأ الى هؤلاء ما تركت منها درهما واحدا »

وسترى كيف كان ثراؤه عريضا لترى كيف كان سخاؤه عجيبا ، بل لترى كيف كان ادباره عن الدنيا مصدرا للقوة في ذاته وأثرا لها في نفس

الوقت ، كالقوى تولد القوى فتتولد منها ، وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاء له السماء .

ثم انك لترى الأريحية كلها اذ يهدى اليه : أهدى اليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهما . وجاءته هدية من الفاكة فبعث الى المهدى متاعا مرتفعا كثير القيمة .

وأهدى اليه يوما ألف نعل ففرقها على اخوانه ، ورؤى بعد ذلك بيومين يشتري لولده نعلا ... فلما سئل فى ذلك قال « ان مذهبى فى الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفها ، وتفريق الهدية بين اخوانى . لما قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أهدى الى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، واخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم ... وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف » ولما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » ولقوله تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » .

وأهدى اليه مرة فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى اليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت اليك . قال « لا تقل هذا فان الفضل للسابق ، ألم تسمع الى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال : من صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه به فأتوا عليه .. » .

بلى .. فليسعد النطق ان لم تسعد الحال .. !

رأى على أحد جلسائه سنجابا فلما هم بالخروج قال له : ناولنى هذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صاحبه يبعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعك لك ! هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ ان بعته منى بقيمته والا فلا حاجة لى فى الهبة ، فان بعته منى بقيمته كان أعجب الى وأفعل

ذلك لأنى محتاج اليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرا بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل الى الظفر بحملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه . وقام الى داره فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى اذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً « هذه دارى أريد الدخول فان كنت تستتم باقى كلامك فآتمه حتى لا يبقى شئ مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديما كان فتى مهين يسلق بركليش بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقي اليه بالا حتى أوت الشمس الى الغروب فسار الى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليش بعث خادما يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته الى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تشق بالفتيا الا اذا جاءت منها واردة من الخارج .. !

حلفت يميناً واستفتته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت الا أن يفتيها زرة القاص « الواعظ » فلم يضق ذرعاً ، وحملها الى دار زرة ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أأفتيك ومعك فقيه الكوفة .. ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأسر أبو حنيفة لزرة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها الى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة « ثلاثة أميال » ليصلها التراويح خلفه وليستمعوا الى وعظ هذا الزاهد الجليل . وليدعوا الله كما يدعوه « أتعذبنا يارب وفى جوفنا التوحيد .. ! لا أراك تفعل » وهو دعاء يوائم قاعدة أبى حنيفة فى الايمان كما سترى

بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب الكبير . ! وأى دار كتلك الدار تشيع
فى أجوائها الزهادة والتبتل والايمان . وأى ذوق كذلك الذى يتلمس على
هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود .
ولما أوجعته الشياط وهو فى قصة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه
عليه ملوك الأرض . لم يكذب يفتح فاه بالكلام الى جاره الا ليقول عن أمه
« والله ما أوجعتنى الشياط قدر ما آلمتنى دموعها » وقالت له أمه : ما خير
علم يضيعك هذا الضياع .

قال : يا أمه انهم يريدوننى على الدنيا ، واننى أريد الآخرة واننى أختار
عذابهم على عذاب الله .

قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن
الحربى « كونديه » « ألا بعدا لأولئك الأبطال الذين لا انسانية فيهم ! انهم
قد يستحقون احترامنا واعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست
معهم ... »

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى
الاسلام أرسقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا
خلقا وخلقا ، سستا ونطقا . صلة بالناس وصلة بالله .

كل أولئك ثم هذا نسبه الأدبى الذى يسمو به الى السابقين من
أصحاب النبى ، فقيم اذن أجهد الأشياء والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسبا
غير أنساب الموالى ، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك وأن
اسمه أو معناه ورد فى التوراة ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر
بقدومه ؟

انما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسية كأسنان
المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهم سواء فى الحج ، وفى الصلاة وفى
الزكاة ، وفى الجنائيات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامه بن زيد على
الجيش وهو حدث ، وفى الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص

وغيرهم . فلما بويغ لأبى بكر قبل الجيش كلم أبوبكر خليفة اليوم أسامة في عمر خليفة الغد ، ليأذن له في التخلف ففعل . وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير ويقول « انى لا أدعوك الا به لأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير » .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته . في تلك الأمة التى لا تعرف شريفا ومشروفا نهض الموالى بأفدح الأعباء في الحرب والسياسة وفي العلم والفقه .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاة عكرمة وظل عكرمة رقيقا حتى مات ابن عباس فباعه ولده على بأربعة آلاف دينار فقال لعلى « بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار ! فاستقال على من يبعه واعتقه ! » .

وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاة نافع ، وألس بن مالك لا يكاد يذكر الا ومعه مولاة بن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر الا ومعه مولاة عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى في بعض الأمصار ، كالبصرة حيث كان على رأسهم الحسن البصرى ، وفي مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفي سوق الفخار هذه علا صوت السودان فتولى الفتىا بمصر يزيد بن أبى حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذى تعلم عليه امام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى ؟ الموالى هم القوم المنتسبون الى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا في الاغلب الاعم من أهل البلاد المفتوحة كبصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحرارا ، وجرت كلمة الموالى في اطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربا من أهل هذه البلدان لأنهم كانوا يسلطون على أيدي المسلمين ، فمن أسلم على يد مسلم

كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا موانئهم ، ولم يك بدعا أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال ان الفقه بعد موت العبادلة الأربعة — أبناء عباس وعمر وعمر والزيير — قد انتقل الى الموالي اذ كان الموالي أهل حضارة رفيعة لم يمسحها الغزو ، لأنه لم يك غزوا بربريا ، وانما كان غزوا فكريا ، فتح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم فى شريعته اليهم وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الايمان غدت من بعد تيارا من التفتح الذهني أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه فى الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأوفى من الدين وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيما ، ولغتهم فصحا ، وقدم الموالي من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة ، واشتتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الاسلامية على الانتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعا قوية جديدة الطراز .

واذا كان ثمة وقائع تشير الى النفرة بين العرب والموالي فقد صارت حديثا فى التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج .
سأل هشام بن عبد الملك جليسه فى فاتحة القرن الثانى : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟

- قال : بلى ياأمير المؤمنين .
قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .
قال : فمن فقيه أهل مكة قال « عطاء بن أبى رباح » .
قال : مولى أم عربى : قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال « طاووس بن كيسان » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال « يحيى بن أبى كثير » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال « ميمون بن مهران » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى ؟
قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال « الضحاك بن مزاحم » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال « الحسن وابن سيرين » .
قال : « موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !
قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال « ابراهيم النخعى » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى !
قال : كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى ! .

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة
الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الاسلام قال غيره .. فلما
سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح
فيهم .. : (ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها سعدا وأنتم لا تسمون ؟)
والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله (لا يجيئنى الناس
بالأعمال وتجيئوننى بالأنساب « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبنى العنبر . والعربى على
حمار والمولى على ناقة . وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا
يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا الى العربى ،
فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتهم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى
قبل العربى فأسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل
الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى
ينظر به الاسلام الى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمدة الدولة العباسية حتى استقرت
بها الأسباب . والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح

الفرس ، واليونان ، والنبطيين ، والكلدانيين ، والأشوريين ، والبابلين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة اسلامية جامعة .

وفي العهد العباسي كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى ، كان عمارة ابن حمزة بعيد الصوت في بلاط المهدي فدخل عليه يوما فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذي أعظمته الاعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاي . فسعها عمارة فرجع يقول : ياأمير المؤمنين جعلتني كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميسون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور — الأسود الزنجي كما يقول المتنبي — وأبو المسك — كما يناديه أيضا — كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبي كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصران دون مجدهما كل مجد السادة هما اللذان منحا الانسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفي التاريخ قديمه وحديثه ، ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الاسلامي وحروف الهجاء في آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبي حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم في التاريخ حيث يوضع . فلا نسل اذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخر ولدهما اذ يقال انهما موليان ، وفتاهما فخر هذه الأمة الاسلامية على الزمان ، بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقالة المتنبي لجده :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد فان أباك الضخم كونك لى أما

ان هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب ولئن ساع ذلك النبوغ في السياسة أو في القيادة أو في الفن ، فانه في الفقه ، وللهولة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة

فى فجر الاسلام ، ففى الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن ، فكيف
تتشغل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة
فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبرز الخلق من بينها !

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم • وهذا الميث بن سعد كان أهل
بيته يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، وهذا ابن حنبل أصله من مرو ،
والطبرى من آمل بطبرستان ، وابن جريح رومى المنبت وريعة الرأى فارس
الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمة من سبى جلولاء ، والحسن البصرى
كان أبوه من سبى ميسان ولو عدنا الى الحصر لشمل الكثرة الغالبة من
أئمة الفقه والعلم ، ولكننا تقتصر على بعض الأمثال . ان اللغة نفسها قد
سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه
« ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العسيد » كان من الموالى ، وهذا
سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائى وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء
كان ديلميا كمهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا موالى أجمعين •
ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة الى العربية • • وهو أول من أشار
بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية الى اليوم أمنية رجل القانون •

نزل الوحى فى شبه الجزيرة كالغيث ، وسال من قمعها الى الوديان
الاسلامية طرا حيث قرر قراره ، واحتتمل السيل فى فيضانه تلك المدنية الراية
لاتنفقها الحدود ولا السدود فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب فى
المحيط الأطلسى : بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتسبت فيه نهضة الفقه
بالكوفة ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع
العظيم على حضارة الاسلام ألف عام ليؤديها الينا فى القرن الرابع عشر والى
كل القرون •

ان هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ،
فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ،
والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام الى جوار
بيت الله الحرام والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعة فى كل مكان ،

وحرمت البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ،
ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما اليه من خصائص
الاسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر ايمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته
بأصول الدين فاستحالت عجبا .

وبهذا تمثلت الشريعة الاسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة
هي الاسلام ، لا فضل فيها لعربي على أعجمي . ، وانما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية ، قد استبدت بهشام بن عبد الملك فانما
جاهلية ذمها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « يا أيها الناس ان الله قد أذهب
عنكم حمية الجاهلية ، وتعاضمها بآبائها ، فالناس رجالان بر تقى كريم على الله ،
وفاسق شقى هين على الله والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن
المؤمنين موال وعرب وأن الاسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها وأن
نبوغ النوابع من أفنان الدولة وانما هو أفخر التحايا للدين الجديد في مطلع
سعدده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شيء ، ولم تبق للناس
من دونها شيئا .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها
هو ... ولو انه ليس لها وانما هو للعالم جميعا ..

لقد اعتز الاسلام بأهل البلاد المفتوحة وتألفت في سماواته حضارة
دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز
الثقل كان دائما في وسط الجزيرة وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره
مبتهلين الى صاحب البيت العتيق بمكة مصلين على صاحب القبر الشريف
بالمدينة .

البابۃ الثانی

التاجر

« لا تشاور من لیس فی بیتہ

دقیق فانه موافق العقل »

(الشافعی)

كان أبو حنيفة خزازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصفوف ،وقديما
كان نبي الله ادريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر بزازا ،
وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجارا •

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة
ويقول « أريد الثراء ولكنى لا أريده من الظلم » ، ويبيع الزيت في مصر
ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان اسبنوزا يصنع
العدسات •

كان أبو حنيفة تاجرا صناعته الفكر ، ومفكرا يعمل في التجارة ، ومن
ثم كان توفيقه التجارى ، الذى انحدرت اليها أنباؤه مع التاريخ • ومرده
قطعا الى دراية ذات شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر
الحديث يسمو عن الاعلان ، وهى ذرائع تكفى احدهما للنجاح فكيف اذا
اجتسعت لدى رجل كله لباقة ، وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر
الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا
فى الأرض مراغما وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الاغنياء مؤثرين
أن يلقوا بأنفسهم فى معترك الحياة بالخروج الى السوق العام ، فى صميم
الميدان ، أو فى عرض الخضم ، بالكدح والدأب واللغوب .

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التى بازائها المفكرون حزنى مبلسين ، عقدة
الفقر الذى عود الناس أن يلزم الفكر ، والمفكر الذى يرتحل رحلة الحياة
الدنيا جوعان تعسا تهدر المسغبة مزاياه ، يقدح فكره ألمعية ولوذية ولكنه
لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة الى ثمن بخس دراهم معدودة !
وينترأى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف اليه فتتحالف عليه
مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتناحرة ، فينوء بالحياة مثلما ناءت
به الحياة .. ويخرج منها محروما مقترا عليه فى الرزق .

وفى حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن
يجلسون الى الأرض ويرفعون أكف الضراعة الى السماء فان السماء لا تمطر
ذهبا ولا فضة ، أو يمدونها الى الأمراء فان مال الأمير ثمن لنفس العالم ،

أو يرقبون أن تنهض حظوظهم العوثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حلبة
من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب
بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأغلب عليهم بعتائه
نقال أسد « لا عليه انما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقى ... » ولم
يكن أسد ليقولها الا وهو القاضى العامل فى القيروان ، والفتاح الغازى الذى
ماب على رأس الجيش فى حصاره لسراقوسه بصقلية سنة ٢١٣ .

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله ،
وكلما آتاه الخالق عن الخلق أدناه الى الحق .. واذا لم يكن الفقه أداة
للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله .

وأدرك الشافعى ذلك من بعده بنصف قرن فقال « لا تشاور من ليس
فى بيته دقيق فانه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه الى البأساء والضراء بأمراس كتان
من الرهينة المضيفة ، والتبتل المؤذى ، فى حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياء
كأنه يعيش أبدا ، وفى أمة يقول رسولها ان أفضل الكسب (بيع مبرور وعمل
الرجل بيده) و (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها
فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

و (نعم المال الصالح للرجل الصالح) كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد - امام مصر - ذا ثراء عريض يضغ الدنانير فى
الفالودج فمن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر ..! وكان صاحباً لمالك
ابن أنس امام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه (حدثنى من أرضى به من
أهل العلم) ومع ذلك كتب اليه فى تريب يقول (بلغنى أنك تأكل الرقاق
وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق) .

وأدركت ضفاف النيل لذع الضربة الموجهة اليها من شمس الصحراء
فاستعان الليث عليها بالله ، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقائق أو أكل الرقاق ،

فكتب اليه يقول (قال تعالى : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) *

وعاش الليث في جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعي انه (أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به) *

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق أثمن جوهرة في التاج ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء والعمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد . كما تلاقى رجال من كل رأى يجاهدون في سبيل العلويين وفي سبيل الأمويين وفي سبيل ابن الزبير وفي سبيل بنى العباس ، وفي سبيل الأمة * أو في سبيل أنفسهم ، فأى جيشان بعناصر الحياة ، ونوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت ت جيشه هذه الكورة ، وأى مضطرب للفنى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة اذا كان يبتغى النجاح بمعناه الانساني لا المالى ، وبمعناه الذى أراده الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد ، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه *

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة يطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للامام الشعبى يوم وجهه للدرس النقصى كما مر بنا ، وهى ظاهرة تتراءى لك في حياة أبى حنيفة في غير موضع مردها الى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملى محض ، حتى اذا كان في ريعان حياته قدم اليه رجل تاجر فقال له (أراك تتجر ، التجارة اذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب) ولئن كان ما عناه هو العلم العام ، ان الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ولعل الفائدة التى يعيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى في العمل التجارى .

وهكذا دخل الى السوق مدخلا كريما فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ، اختار لدكانه مكانا من أبرز أمكنة الكوفة في دار ليست هينة على التاريخ ، هي دار عمرو بن حريث - الصحابي - يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجدل في حياة العراق ، وحيث يكون للأماكن شأن .

ففي سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة الى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليهم ، ومالوا الى ابن الأشعث وسبقت اليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث وفي سنة ١٢١ خرج زيد بن علي وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث، فهي لا مزية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك .. وحيث سوق الحرير .

وانك لتتصور مظاهر الذوق في ترتيب دكانه مما كان عليه في خاصة شأنه حسن هيئة ، وبزة وتفكير وتعبير ، بل انك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تتسمم العطر يتأرجح من أردانه وزوايا دكانه ، وتتصور النساء اذ أقبلن أو أدبرن ، بآثام أو مشتريات ، يغضضن من أبصارهن ولا يبدن زينتهن . يدلفن الى الدكان كأنما يفتن الى الدرس ، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان في المحراب

كان صاحب هذا الدكان يقول (« من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا » ويقول : « اذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » وكان رحمه الله اذا مشى في الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة . قال في وصية لأحد مريديه « .. واذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر الى الأرض .. ولا تماكس بالحبات والدوانيق .. » فيأله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يبغضها بانفاقها في المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم بغير الحبات والدوانيق .

جاءت عجوز الى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسننها أن يرفق بها .

قال : دونك هذا الثوب يا أماء ..

فالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لاتسخر منى وأنا عجوز لا حيلة لى !!

قال : انه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله
الا أربعة دراهم . وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمننا للثوب الباقي ..

أضف الى هذه الصورة والى آداب التجارة ، أن الحانوت ليس محلا
للمدارسة ، وان تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة وهكذا بقيت
دار بن حريث خالصة للتجارة ، أما العلم فبقى دائما فى مكانه . لا فى السوق ،
ولا فى الطريق .

فى ذلك الحانوت يجلس سيد مكث غير عجل ، مخبور التجارب ،
يتقبل الناس بقبول حسن ، وضاء المحيا ، منبسط الطبع ، ميمون النقيبة ،
ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لا يمايل ، ولا يتحيف ،
ولا يستكبر ، ولا يستنكف يقصده فظ القلب فيألفه ، ويسر به الرجل فيجلس
اليه لغير قصد ولا مجالسة ، فاذا قام سأل عنه فان كانت به فاقة وصله ، وان
كان به مرض عاده ، حتى يجره الى موصلته .

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة ، فكاتنا كلمة السر فى دكانه ،
لكأنما كانت كل ألواح « الثمن محدد » مرسومة فى مخيلة حرفائه وعملائه
قبل أن تشد الى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الاساتيد فى
الجدال ، ان لكل مقام مقالا .. وليس هنا مقام الجدل .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الانسان ، بل انه ليقطع أبعد
الاشواط فى مضمار النصفة ، فلا اعلان ، ولا شبهة اعلان ، لما قد يكون فى
الاعلان من ايهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد برسالة الرسول صلى الله عليه
وسلم ، تأسرهم الكلمة اذا سيقنت ولو فى السوق ، فكيف بها اذا خرجت من
فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفى دكانه .

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبا ، فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . . .

قال أبوه : مه قد ملحتة . . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد الى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة الى الثوب . وأظهر ما يكون استعدادا لدفع الثمن ، ولكن الشيخ في غير مخاشنة ولا مشاقة ، بل في سماح واسجاح ، رفض أن يبيع .

وعاد المشتري أدراجه .

وفي ذلك الحانوت بضاعة لاتعرضها الحوانيت الاخرى في سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة الى الكوفة ليشتري لبنته جهازا ، فينبهه الناس على الجهاز في دكان « الفقيه الخزاز » . وان الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

واذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشتريا فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الاستاذ ما زاد على الثمن ، بعد اذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أدواته في الفقه ، كان الفكر أدواته في التجارة . كان الثمن في دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف اليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم في تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف في ثياب الخز في دار ابن حريث .

حقا ، انك لاتستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد جاءه عن الفقه أم أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدرا متيقنا تستطيع أن تقرره بين الجوابين ، هو أن الصدق والحزامة في التجارة قد هيا

له من النجاح أسبابا مواتية للتفرغ لدين الله ، في روحانية المتعبه ، يستقبل تلك اللمحات التي يعيشها الالهام في الكون كومضات النور . والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته متحفزة تتلقاها ، كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس في أفكاره ، فعدا فقهه فقه الحياة التي نحيها ، ورحم قلبه ضعف الانسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسئولية المخاطرة فصدع بالرأى في مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمّل المستقبل ووضع لاحتتمالاته ما يحكمها من الأصول متحرزا - كما قال - من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت في الفقه التجارة ، أحدث الفقه في التجارة آثاره . فلئن كانت في الفقه العصري مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وان كانت تستزريها قواعد الآداب ، ان الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق .

بعث بمتاع الى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن في ثوب منه عيبا فيبنيه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمنه كاملا لثوب غير كامل - وقيل ان الثمن كان ثلاثين الفا أو خمسة وثلاثين الفا - فأبى أبو حنيفة الا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشتري ، ولكنه لم يهتد الى الرجل فأبى أبو حنيفة الا فصلا من شريكه وتنازكا .

بل رفض أن يضيف الثمن الى حر ماله وتصدق به كاملا .

ذلك مثله لانصاف المشتري من نفسه ، وهذا مثله اذ ينصف من نفسه البائع : جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ، قال بكذا . قال انه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف !! بل جاءته امرأة بثوب خز يبيعه بمائة فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربع مائة . قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بي ؟ قال هاتي رجلا . فجاءت برجل فاشتراه بخمس مائة درهم .

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخريا . وصدقت كذلك أنه لم يك يريده الاحسان اليها .. وانما نفع الله به البائع والمشتري .

فهو ينصف المشتري منه • والبائع له ، وينصف من لا يبيع له ولا يشتري منه ، كل أولئك ونظائره في لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فإذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس في ظل جداره !! قالوا انه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفىء الى ظلاله اذ يجىء الى داره ، وهو الورع الحق ، لكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف الى عسر المدين الحاح الدائن ، اذ يترصده .. فلا يجزى المطال بالاحتلال وان كان الاحتلال مجرد فيء الى الظلال •

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذى وصفوه بأنه كان رجلا وسيما » • • وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يآلفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته • • • ! ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان بينهما تواصل ذهنى يتراءى خلال ذلك التشابه • فى العمل وفى الطباع ، حتى أن أبا حنيفة كان يأخذ بأبى بكر وأفعاله وخصاله .

و ذات يوم بعث الى فتية يقول لهم : ان أباكم أودع عندى مائة وسبعين ألفا فخذوها ١٠٠ ولم يشهد عليهم فانه لم يكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال •

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفا ردت لذويها .

وازدهرت تجارة أبى حنيفة أيما ازدهار ، ان هذا الانفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد ، وهذا التصدق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لا تسمح به الا البيوت المالية الوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل ان بعض أعداء أبى حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبى حنيفة استعملت فى تقوية ابراهيم بن عبد الله (بر الحسين بن الحسين بن على) اذ خرج على أبى جعفر وانه لهذا حبس أبا حنيفة •

الى هذا القدر بلغت هذه الأموال .. أن تساعد فى ادالة دولة واقامة دولة • • • ١٠٠٠

بهذه القواعد التى بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال كريمة للناس .

انك لاتستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدنيا مدرسة مكبرة ، والحقائق لاتفهم بصورة ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق ، والناس فى الدنيا كالتلاميذ فى المدارس لن يفهموا شيئاً الا اذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء ، - والكلام لايهدى قدر ما يهدى العمل ، وما تهدى القدوة ، والقدوة فى العلم هى أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب •

أذن النبى لصحبه وهم على سفر فى الافطار شهر رمضان وبقي هو صائماً فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر، فخفوا الى الاقتداء بفعله وأفطروا ***

ونظر فتیان من أسباط الرسول عليه السلام - يجرى فى عروقهما دم الهدى والرسالة الى أعرابى على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلطت ربما انتفعت أوداجه ، ولا ينقاد الى الحق فقاما اليه ، وقالوا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فان كان عندنا قصور فعلمنا ، فتوضأ وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته •

ان قاعدة الاصلاح فى جيل هى أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث فى اصلاح سواء فالنفس هى التى تسمع لا الأذن وفى الناس لاجاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم الى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام اليه •

خطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون؟ قال سلمان : لانسع •

قال عمر : ولم - يا أبا عبد الله - ؟

قال : انك قسمت علينا ثوباً ثوباً ، وعليك ثوبان •

قال : لا تعجل • ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد • قال : يا عبد الله
ابن عمر - ابنه - •

قال : لبيك يا أمير المؤمنين •

قال : نشدتك الله ، الثوب الذى ائترت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم •

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع •

ذلك سلمان الفارسى أو الناس جميعا • • ومع الخليفة الذى خطب
عندما تولى . ألا وانى أنزلت من نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم ان
استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف تفرم البهمة الاعرابية القضم
(الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الاضراس) •

وقديما قيل : خير من الخير فاعله • وشر من الشر فاعله •

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الأراء
فقال : (ان الناس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذى
أصاب حظة ومن خالف فعله قوله فانما يوبخ نفسه) ومن قبل قال عليه الصلاة
والسلام (ان فى جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فيشرف عليهم من كان
يعرفهم فى الدنيا فيقول ما صيركم فى هذا وانما كنا تتعلم منكم . قالوا كنا
نأمركم بالأمر ونخالفكم الى غيره) •

وقال (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا) •

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوما زاهدين ، وخاض القادة
المبرزون معاركهم فى الصفوف الأولى وفى الطليعة : كخالد بن الوليد وعمر
ابن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وغاندى فى الشرق ، وكرومويل ،
وسالازار وديفاليرا فى الغرب •

ومن ثمة تدرك أثر القدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والكريم
الفعال •

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاما وكان رجلا صالحا روى عن شريكه الحديث والفقه ، ولا ينبىك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجارى للزميل التاجر . وما أدراك ما فى الضمير التجارى : المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المنذع نحو كل ما هو مادي ومالي ...! الى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع اذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة) .

ولئن سمعت أحاديث الورع فى مجال الورع فمن العجب حقا أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنسك مجتمعين .

ولنستمع اليه مرة أخرى يقول بعد أن تثاركا « فى طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر ولم أحدا يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان اذا دخلت عليه شبهة من شىء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله » .

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل ما يعلن ، ولا يصنع فى السر الا ما يصنعه فى الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى البشر .

ولئن جاء فى الحديث أن التجار يعيشون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق أو كان من أصول فقه أبى حنيفة أن الشك لا يزيل اليقين فان هذه الأصول للناس وليست له . ولو كلفته جميع ماله .

ان أبا حنيفة قدوة للناس فى علمه ، فليكن قدوة للناس فى عمله ، وليأخذ نفسه بالشدائد ، حتى اذا نقلوا عن الأصل ، وخف الأثر فى النقل ، وصل اليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبى يوسف « ولا ترض من العبادات الا بأكثر مما يفعله غيرك فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعتقدون فيك

السوء وقلة الرغبة فيها ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم
الجهل الذي فيهم .. وكن من الناس على حذر ، وكن لله في شرك كما أنت
له في علانيتك فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما نهى الأمير عن الفتيا فانتهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في
داره فلم يجبه ، قال يا أبت مالك لا تجيبني قال « أخاف أن يسألني السلطان
هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا » .

ولقد كانت لديه مندوحة في أن يفتي ، لكن الرجل القدوة لا يرى لنفسه
الرخص ولا المنادح ، وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون
حرفي الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهاها قام ذلك البيت التجارى في دار ابن حريث
بضع عشرات من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيت زاكى الأحدثنة تقب
في البلاد ذكره وذكر عروضة من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يخف
به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه
الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

جاءت تكاليف الاسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين
عما يسأل الناس عنه .

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ، ويأتى على أهله
الليالى ما يجدون فيها عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى
مسندته الى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال
فأنفقيها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها فلما
آفاق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة ؟ قالت لا والله يارسول الله . فدعا
بها فوضعها في كفه . فعددها فاذا هى ستة دنائير فقال : ما ظن محمد بربه لو
لقى الله وهذه عنده فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوميا درهمين هما كل المخصصات
العمرية ! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة ! ويضرب عامله على البحرين

« أبا هريرة » حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بعثناكم لتتنجروا في أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله •

مر يوما ببناء يبني بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها . وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت الى عبد الله - ابنه - فقال .. « بحسب أهل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد .. ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا لا لى ولا على » •

لكن صاحب هذه النفس العنيفة يرى في فحمة الحلك أطفالا جوعا فيحصل اليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمريات التى تذر المفكر فى ذهلة المتحير ، وهذا التوفيق الذى سددت به العناية الالهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيدة وسعد ابن أبى وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم فى كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعا من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الاسلامى ، ليست الا أصداء متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسلام • ما يزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور • • وانما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المسدى ، فتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة لأن الصوت الأصيل الذى يدوى فى الأرض هابط اليها من السماء • تصيب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا • فانتقلوا من الجاهلية الى هدى الاسلام وغدوا حكاما وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالالا فى الوغى يجدلون الأبطال • ليس ما أحدثوه الا آثارا مما أحدثه الصوت الأول فيهم • فلما صعدت روحه الى بارئها كانت كوعاء العطر اذا فُض قدامه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون

العلم أو السياسة أو الحرب إلا رجال تضرم جذوة الايمان فيهم حرارة الرسالة التي كانت تغمر قلوبهم بالنور •

انما هي الزعامة الصحيحة الملأى باليقين تخلق الناس خلقا جديدا وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات ، فتحدث الأحداث منقاربة أو متباعدة ، في العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية ، وانما يهم الايمان الصحيح الذي يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان •

وسترى بعد كيف كانت حياة أبي حنيفة قدوة للفحول والأبطال •

كان أبو حنيفة خازنا ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا •

هذا الامام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحب أبي حنيفة ، كان الخصاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج ، ويصنف كتبه العظيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال .. وهذا الكرايسى يبيع الكرايس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملي في « صناعة الأقفال » وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطا ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل في الجص ثم هؤلاء الصنفار من بيع الأوانى الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى ، والنعالى ، والبقالى ، والقدرى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الاسلامية ، أن هذه الأمة حققت في العصور الأولى ماجاهد العالم العربى عشرات القرون لتحقيقه ، ولما يكاد يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعة وانما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم ، ويشهدون بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس سننه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم فى أسمى الذرى ، فترى ، فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى

الفقهاء الصناع . والصناع الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معا
ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ،
كان العلماء عنده تلامذة ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان
الذى قال عنه ابن عمر : ان مروان ابنا فقيها فاسألوه ، والمأمون عبقرى
التاريخ الاسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبى الذى يضع كتاب الرد على
الخطيب البغدادي سنة ٦٢١ هـ ينضح به عن امامه أبى حنيفة .

تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهما
وتطبيقا ، يفهمها الاميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فطرت الله
التي فطر الناس عليها) قوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، ففى حلقات
البحث مضمار للافذاذ وللأفراد والملوك أيضا . كل ميسر لما خلق له ،
فلا غرو أن يرقى الى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها
الرجل بهمته لا بمهنته ، فى حضارة لحمتها وسداها الاخاء ، يجب المؤمن بها
لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، (اذا اشتكى
عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وتلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الاسلامية
تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الاسلامى وتاريخ
الفقه فى سائر الأمم : فهناك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا
يصدره رجل الدنيا .. وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان . وهنالك
بين المعاملات والعبادات خلافات أى خلافات ، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء
كفقهاء الاسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيسون ورهبانا
يستمرئون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستنزلون فيوض الالهام ، أما
الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقا ولكنها لا تعرف الرهينة
ولا الطقوس ولا المراسيم ، وهى اذا كانت جهادا ضد النفس وضد الكفر
فهى أولا وبالذات دين اجتهاد .

الباب الثالث

فالمسجد

« الشعلة من الشرارة »

بوشين

نحن الآن في المسجد الجامع • وإن شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد
بنى في أعلى مكان من المدينة ليسع أربعين ألفاً وبنيت له ظلة تبلغ مائتى ذراع
من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة • مال ميزان النهار ، وأخذت
الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة ،
تحدد مواقيت الناس • فيفدون للصلاة ويتطهرون بالوضوء يرحضون أطرافهم
ويغسلون وجوههم ، وينتعشون بعد ما عانوا في سبيل المعاش اذ ينتقلون
من الدنيا الى حضرة الخالق في ركعات معدودات هنالك تسمع زجلا للناس
قد ألفوه بعد كل صلاة : اذ يآوون الى ركن أو يلتفون حول واحدة من
أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل في خصوماتهم واستفتاء قضاتهم •
هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد .. هذه حلقة مسعر بن كدام
للقرآن والحديث ، وتلك لابن شبرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد
ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة • وتلك حلقات أخرى للشعر
أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعاً • • يكاد
المسجد لا يخلو من درس ، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات في المسجد
الجامع •

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت الجامعات في العالم الإسلامى
هى المساجد الجامعة ، ففى الحرم النبوى كان النبى صلى الله عليه وسلم
يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس
ابن عباس الى جوار الكعبة أكرم المجالس • أصحاب الفقه عنده وأصحاب
القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واحد • وفى البصرة
وفى الكوفة ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التى
خلع عليها الاسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هى حلقات
الدرس فى صحن الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل
مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية
والقصصية وما إليها •

ولم يعرف نظام انشاء المدارس لتدريس العلم خاصة الا فى سنة ٢٨٣هـ
فى بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠هـ أنشئت مدرسة

نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعا ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتا للعلم كما هي بيوت الله •

كانت الى جوار تلك الحلق في جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان • لا يقبل اليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من اسفاره ، أي من صميم الدنيا •

في هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبي سليمان الى أن وافته المنية في سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبي حتى اختاره الله الى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس ابراهيم النخعي الى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعي الى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ومن قبلهم جلس علقمة النخعي عم الأسود وخال ابراهيم یرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتي الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ كما جلس شريح بن الحارث الكندي نحو ثلثي قرن يقضي ويفقه الناس الى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتي الناس ويفتي شريحا حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعا جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود الى أخريات أيامه ثم ودع مجلسه الى المدينة حيث صعدت روحه الى الرفيق الأعلى في سنة ٣٢ •

لم تكن حلقة أبي حنيفة كسائر الحلق بل هي كانت تثير المشكلات في الداخل والخارج ، وتأتي كل يوم بجديد يتجلى فيها طابع التطهر في الجسم وفي العقل معا ، فلا يستعملون الماء اذا استعمله سواهم • ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبي حنيفة للوضوء حياضا ذات صنابير فنسبت هذه الصنابير اليه (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء والماء المستعمل غير ظهور عند أبي حنيفة •

كان سفيان الثوري يفتي بجواز الوضوء بماء قد توضع به الغير فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول انه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه الى قول أبي حنيفة •

فالحنفية التي تفتحها وتقفلها صباح مساء هي الذكرى المتجددة لهذه الحلقة المتأنقة في طهارتها لا ترد الماء إلا صفوا من الشوائب مثلما تراها من بعد صائفة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات في العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هي كالصلة بين النظافة والماء ، فأى ذوق كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة .

وإذا كانت النظافة من الإيمان فمن كأبى حنيفة في نظافته وفي إيمانه ! . من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستيائك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود لنا لا يابس وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وأن لا يستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) .

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثيابا رثة فأهاب بصاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضور ، حتى إذا صار الرجل وحده قال له ، ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال (خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك) قال الرجل انى لست أحتاج اليها وأنا موسر قال أبو حنيفة (أما بلغك الحديث « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغى لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك) ! . ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل انها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمع وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هي ولا وراء حلقة الثقافة .

بلى : ان الله سبحانه وتعالى يحب أثر نعمته على عبده والناس كخالق الناس - سبحانه - يحبون أن يروا أثر النعمة على من حبسهم نعماءه . والشباب الرثة لا تظمن ولا تسر . وما لا يقبل شكله لا ينظر في موضوعه ،

فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع . وأول ما يبدها به الرجل منظره ومظهره . ففيم يفرض المتهاونون في مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القذى !

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : أحمل معنا ألف دينار فاني أريد أن أمر بالأصمعي فإذا حدثني وأضحكني فضع الكيس في حجره ، ثم صار اليه فحدثه الأصمعي بكل شيء فلم يضحك . فقال له صاحب كان معه : انه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شيء قد أخرجته من بيت مالك قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم . ولم أدخل له بيتا قبل هذه الدفعة ورأيت حبة (الجرة الضخمة) مكذرا وعيله برنكان (كساء أسود) منجرد وتحتة مصلى وسخ . وكل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجي من مديحه وهجائه ، فعلام أعطيه الأموال اذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه !

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته ، واحتبى بطيلسانه واستند الى المحراب ، مشرق الديباجة طلق المحيا في بزته التي عهدناها وأقبل الى الناس فحياهم واذا كان راجعا من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، واذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرائهم يسهم في أمورهم ويتعهدهم ويواسيهم ، فاذا شرع في الكلام انجفل الناس اليه مخلفين حلقاتهم ، يتقصفون حوله صفوفًا صفوفًا ، في زحمة لا تسمح للفتى الذي سيصير في الغداة اماما وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلسا الا في الصف الرابع أو الخامس ، أما في الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الأول ، الزملاء القدماء : اسماعيل بن حماد وأبا بكر النهشلي وأبا بردة الضبي ومحمد بن جابر الحنفي يجلس معهم بين الفينة والفينة أساتذة الحلق المجاورة ، مسعر بن كدام - آية الكوفة في ورعه وحفظه وزهده - والحسن بن عمار - أستاذ الحلقة القريبة - يجلسان مع أترابهم الى ذلك الذي لا ترب له ..

وهؤلاء في الصفوف الأخرى .. أسماء لها جرس بديع في الأذن زفر بن الهذيل ، كان أبوه والى البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه .. ويعقوب - فتى من العامة سيعرف فيما بعد

(بأبى يوسف) - والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكرى للكوفة عبد الله بن مسعود ، عالم فى اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلي والوليد بن أبان ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه جديدة : داود الطائى الذى سيرقى الى الذروة فى العلم ثم يغرق كتبه فى الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاما ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه . وفضيل بن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، ويوسف بن خالد السمتى ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول ، وحفص بن غياث ، وعافية الأودى ، وعلى بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة بن حمزة وستأتيك أنباؤهم بعد حين . . .

وأخيرا وفى نهاية العمر ، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفا ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه الا أن يحفظ القرآن فغاب وعاد يقول انى حفظته فى سبعة أيام ! لم يكدهم يحفظ القرآن الى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ الى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيبانى . . .

وهؤلاء وهؤلاء .. يناهزون الأربعين عددا : حلقة اسلامية بحق : فيها الموالى والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المخلطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطرح المتدارسون المسائل ، فاذا كان فى الحلقة غريب خياه وبدأ به فقال له : هات ما عندك . ويتناظرون فلا يستبد بأرائه . بل يطرح مسألة مسألة يسمعون فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول « لا يحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ويقول « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » . يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية فى التفكير الا اذا مارسوها فى التعبير . ولن يتعلموها مع الناس الا اذا تعلموها مع الأستاذ . وهو عندهم خير الناس .

ومن ألف عام قبل أبى حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : استاذى صديقى والحق صديقى فاذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة •

روى شاهد عيان : كنت عند أبى حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة فسكت ثم ألقى عليه أيضا فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة • فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لاتعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجرىء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت الى أبو حنيفة وقال « دعهم فانى قد عودتهم هذا من نفسى » •

بلى : وأية غضاضة على العالم أن يخطيء أو يخطأ ؟ أليس على رضى الله عنه يقول (كنت لا أرى بيع أم الولد فى زمن عمر •• واليوم فقد رأيت ذلك •) ! وأبدي ابن عباس رأيه فى مسألة من مسائل 'المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له : انك كنت تراها فى زمن عمر قال : (هبته وكان رجلا مهيبا ••) •

ذلك صنيع العالم يتراجع أمامه حجة العالم ، حتى اذا بدت له معاييبها عاد يصدع برأيه من جديد • والذي يرجع عن خطأ أمس الى صواب اليوم ولا يصنعه الا لانه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر نفسه عن خطئه كان مضرب الأمثال • ففيم يشفق الشاهد على أبى حنيفة اذا يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيرا أخف ففيم ذلك أيضا ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها الا فى معارض النفاق . والنفاق ليس من دروس أبى حنيفة • واذا لم تسم الأشياء بأسمائها فى حلقات الفقه وحلقات الجدل فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ ان الخطأ ليس الا الخطأ • يسميه كذلك القائل الحر للسامع الحر • وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته واقتعال يضيع الزمان سدى •

قال رجل لعمر بن الخطاب (اتق الله) • فأنكر ذلك بعض الحاضرين •
فقال عمر « دعه فليقلها لى • نعم ما قال • لا خير فيكم اذا لم تقولوها •
ولا خير فينا اذا لم نقبلها » •

ان العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق • وانه ليدرك أن عظمته الى جوار
عظمة الخالق كجناح بعوضة الى الخلق العظيم الكواكب • فلعل الحق أن
يجيئه من أى ذرة من ذرات هذا الوجود أو أى رجل مهما يكن من الخمول
والقدامة ، وهو لن يستطيع أداء رسالته الا اذا وثق من قدرة الله على أن
يصلح الدنيا على يد سواه •

قيل لأبى حنيفة : لا يزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فسدت غير مسود

ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وفي أواخر القرن الرابع دعا الناس القيروان على بن خلف المعافى
بابن القابسى ليجلس فيهم معلما فأبى ، فهدموا عليه بابه اذ أغلقه دونهم فلما
رأى ذلك خرج ينشد :

لعمر أيبك ما نسب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

ثم قال : وأنا والله ذلك الهشيم .. وبكى وأبكى ••

فاذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبى حنيفة ! واذا تدهور صاحب
السخيمة الى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، وينطح الطود الأشيم • قال
له الرجل يا مبتدع يا زنديق • فقال : غفر الله لك • الله يعلم منى خلاف
ما قلت ، وأناى ما عدلت به أحدا مذ عرفته .. قال الرجل : اجعلنى فى حل •
قال الامام (كل من قال فى شيئاً من أهل الجهل فهو فى حل •• وكل من قال
فى شيئاً من أهل العلم فهو فى حرج ، فان غيبة العلماء تبقى شيئاً بعدهم) •

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحدة أياما وليالى أو شهرا أو أكثر من
شهر • فيبدأون على الدرس ويكبون على التخريج • حتى اذا قتلوها بحثا

أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول • أو التفت الشيخ الى من يكتب منهم فقال له (ضعها في الباب الفلاني •) ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فاذا أحكموه أخذوا في غيره ، واذا استعصت مسألة أو غلوا فيها وتوفروا عليها حتى اذا قطعوا فيها برأى تهللوا يشرأ وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر ! •

ابتدأوا في مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابة بالغداة والعشي فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعا لله • وكان ذلك ايذانا بأن مسألتهم قد خرجت •

واذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال « اللهم لا تؤاخذني » ثم يفتي •

وفي ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده ، فكلمه زفر في مسألة ، فتجاريا يتقايسان ، حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعا الى داخل المسجد • ورجعا الى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبي حنيفة .

ترى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة في شرع الله انما هي سجدة من السجادات لذاته وتسبيحة بآلائه •

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله — جل شأن الله — يولون وجوههم شطره في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة •

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال (من تعلم العلم للدنيا حرم بركنه ، ولم يرسخ في قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه) •

أليس هو القائل لنا بغتهم أبي يوسف (... وان بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم فانك اذا أعرضت كانت معيشتك ضنكا .) على ما قال الله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا • » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق والهام وعبادة اذ كانت تشكل

عليه المشكلة فيقول : ما هذا الا لذنوب جنيتك . فيستغفر الله . وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة . . .

أجل وهو الذي طالما قال لهم (ان لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا) . وهذا الذي يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذي قاله رسول الله من قبل (أفضل العبادة الفقه) خرج صلى الله عليه وسلم فاذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله . . فقال « كلا المجلسين الى خير . أما هؤلاء فيدعون الله تعالى وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل . . هؤلاء أفضل . بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم .

كان الطلاب في الحلقة خشعا قلوبهم ، عالقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل في عقولهم وألسنتهم بينما تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم كأن ليس في المجلس أحد وكله فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضعو الرقاب .

قال زفر (اذا تكلم خيل اليك أن ملكا يلقيه ما يقول) ، فمن فاته من الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، ان لم يكن كل عمره . مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه .

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقى لنفسه ساعة من أبي حنيفة . . ! فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم وأية نعمى هذه التي كانوا يؤثرونها . . ! ان المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف الا اذا ذكر موقفا آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصبح تقديرا اذا كان أبعد زمانا ومكانا . . أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى اذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين .

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال (وددت أن لى مجلسا من أبي حنيفة بنصف ما أملك) قيل ، ولم تتسنى هذا ؟ قال (في النفس حزازات كنت أسأله عنها) .

حقاً : كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون : روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضراً ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام .

وقيل لأبي يوسف وهو قاضى القضاة : هل وددت الى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال (وددت الى زهد مسعر بن كدام وفقه أبى حنيفة) . قال الرشيد ما تمناه أكثر من الخلافة . ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء .

تلك الرهينة العلمية ورثها تلاميذ أبى حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدين مما كمثل أبى جعفر النسفى ، يبيت ليلته مهموماً من ضيق البال ، وكثرة العيال ، فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص في داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث .. فيخبرها فتعجب .. !

جاءت القزوينى زوجته وهو يلقي درسه فأسرت اليه خبر وفاة ولد له شاب كان يحضر معه في كل يوم ولم يحضر معه في ذلك اليوم . فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئاً ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال ان محمداً دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبى حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقي دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما . فدخل جندي برسالة من الامبراطور الى أورلينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الرومانى لم يفض الكتاب الى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خشع في محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس ، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التى تتيحها العناية الالهية للناس اذ يجلسون اليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن في انفاقه .

وفي بعض الأحيان يطول الجدل في الحلقة ، ويستخدم وتتعالى الأصوات
بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم اذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو
ثعالب صيحت بين النواويس

فاذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الآذان والأذهان فالحلقة قانون
غير مدون ولكنه في القلوب انه « اذا تكلم الشيخ فسمعا وطاعة » . لقد
جاءوا اليه وهم أحرص الناس على لقياء وسماعه • عالمين أن الفقه أرفع العلوم
وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له ان في هذا المسجد حلقة
ينظرون في الفقه • فسأل (هل لهم رأس ؟ قالوا : لا • قال : لا يفقه هؤلاء
أبدا) ...

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ • وكيف تنتظم الحلقات
بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام في صخبهم ثم بصر بهم سكوتا كأن على رؤوسهم
الطير اذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال « ان رجلا تسكن عنده الأصوات لعظيم
الشأن في الاسلام • » لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم،
فاذا نبههم الناس على أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال
« دعهم فانهم لا يفقهون الا بهذا » !!

انهم لم يكونوا تلاميذ الا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراه
الدنيا غدا فحولا دونهم كل الفحول والافذاذ لو شهدتهم حول أساطين
المسجد الجامع لحسبتهم في مؤتمر دائم لا يكاد ينفض •

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام
مليا ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين • • ثم قرب الى
المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء أرفقوا بالشيخ فانه مع ما هو فيه قد أقام
عشر ليال متواليات شهدت الليلة التي مضت منها • •

كان محمد بن أبى ليلى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد وكان كثير الشكاة من تلك الحلقة التى تشرح أقضيته ، لكنه كان يتلمس فى الخفاء رضا الشيخ عن تلك الأقضية ، واذا قدم ابن اسحق صاحب المغازى الى الكوفة جأراه فى المسائل • أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس الى أهل البدع؟ فيجيب « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علما » •

واذا سأل سائل عن العلم فان للعلم مكانة ، وللمفتى وقارا لازما لاستجماع الفكر يمتنع معه أن يفتى فى عرض الطريق ، قال لسائله مرة « لاتسألنى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو ذئم أو متكىء فان هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال » •

وللمرأة احترامها . وحياطتها اذا جاءت الى الحلقة تستفتيه فانه ينهض اليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود الى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذى ضربه بينها وبينهم « انما غرضي أن أحصنها من أحدات الرجال » .

واذا قام من الحلقة عاد مريضا أو شيع جنازة • بل انه ليحمل سرير الميت من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله •

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح • فالرجل الذى يقسم حياته بين يدى الله فى داره طول الليل لا ينقص منه لنومه الا قليلا ، وبين يديه أكثر النهار فى بيته يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الضخم فى سبيل العلم وفى سبيل الله ، انما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التى يحملها للناس . ولهذا لم ير مستجمعا ضحكا قط ، وان كان يتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه • •

والقهقهة ليست على كل حال من خلائق السادة •

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوما ! • • كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم : عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ ، والذى كان

يطبع الجد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائي قد أقبل من دفن والديه ، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا الا له ، ناظره أبو حنيفة في فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يا فتى تتكلم في مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبدا . قال أبو حنيفة : فانقطع الكلام بيني وبينه رحمه الله وقال انه نادم على ما فرط منه أبدا . . وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساق اليه من المغالاة .

وانه ليلقى درسه في المسجد ذات يوم فاذا بحية تسقط في حجره وهرب الناس ، فما زاد على أن نفخ الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس ، وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فرارا وملئوا منها رعبا . أما هو ، والحية قد سقطت في حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقيا عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد (فلا والله ماتخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير . ثم قال : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيدا عنه) .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لكأنه اذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد في المحراب بين يدي الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شأنه الارتياح للبغثات والفجاءات ، لكن سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ في وقاره وضعاً مسرحياً ولا مدرسياً بل استمر في درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة في إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين : دعوهم وأبلغوهم مآمنهم واقرأوا عليهم القرآن . فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم مآمنهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصابة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبي حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت في خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحي ، وتذاكر المتحاوران في صمت قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الخوارج عن سفك الدماء ، وسما أبو حنيفة في التعبير عن أن يقول : انهم (مشركون مستجيرون) كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء اذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأسه ونفسه . لكن أبا حنيفة يقف وما في الموت شك لواقف ، فيصيب في العبارة والاشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات •

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوقار من ذاته الى عباراته ، فإذا حلف صادقا في عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارا ••

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتا ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويا وجهارة في الكلام » • وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد • يقرأ القرآن في كل وقت ، ويبرز في حلقات المتكلمين في صدر حياته حتى اذا بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض برسالة من الرسائل التي تدين لها الحضارة الاسلامية بأسباب البقاء .

والجهارة والدوى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الالتقاء — كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة الى القلوب ، مثلما هي جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » الى « شيشرون » الى « ابن أبي طالب » الى (ميرابو) ، وفي « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفي أسواق (عكاظ) و (مجنة) و (ذي المجاز) و (مكة) و (المدينة) و (العراق) و « مصر » ، وفي قصور الأمراء ، وفي رمال الصحراء ، وفي محافل باريس ولندن وفي كل مكان .

وسيبقى ذلك شأن البيان في كل زمان ، والناس ، دائما هم الناس وكلما
غير الزمان وجهه أظهر للدنيا وجهه نفسه باعتباره وجهها جديدا .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء فالعلم لا ينبع
من القلب الا عند استجمام فضله واستجماع عفوه .

سئل الشافعي عن مسألة فسكت ف قيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟
قال « لا ، حتى أدرى أين الفضل ، في سكوتي أم في الجواب » .

من أجل ذلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب (ورأيه لا يدفع
بالهويناء) كما يقول الشافعي (ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام
بحجته) كما روى مالك . كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها
نفحة من منطلق الرسول الذي قالت عنه أم معبد (كأن منطقه خرزات نظم
يتحدرن) .

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح الا بالخلو الى النفس
بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع (ربما كانت البلاغة بالاستماع) . والذي
يتحدث حديثا صالحا لا يتحدث الا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء
فاذا ألقيت به في غير مكانه أو في غير أوانه أو أدليت به الى ضمير جامد
أو شعور بارد، كان لالونه ولاطعم فيه وهو السلسل العذب ، بل انه
ليغص به الشارب وتفتحمه عين الرائي .

فذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يجمل الادلاء ،
ويجدر الافناء ، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل
اذا اجتاحت جنبات الوادي .

قال : « لا تحدث بفقهك من لا يشتهي فتؤذى جليسك » ومن قطع
عليك حديثا فلا تعده فانه قليل المحبة للعلم » . وقال في إحدى خطبه :
« ان الكلام كثير ومحكمه يسير وان الكلام لا ينتهي حتى ينتهي عنه وان
خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبي يوسف وهو يمحه النصيحة :
« من جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب الا عن سؤاله ولا تضم اليه غيره

فانه ينشوش عليه جواب سؤاله .. ومن ناقشك من العامة والسوقة
فلا تناقشه فانه يذهب ماء وجهك » ..

على هذا النحو ظلت حلقة أبي حنيفة ثلاثين عاما تعمل في مؤتمرها
الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسألة فيقسمونها
أقساماً ويتولون كل قسم أياماً وليالي بالتحليل والتعليل ، حتى اذا قعدوا
قواعدها راحوا يفترضون الفروض التي قد تقع في المستقبل ، وتتداولها
أدمغتهم كأنما تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة ، فتخرج أحكامها
على أيديهم كالجنين الحي .. وانتشرت موجة الافتراض والتفريع فان
ما لا تكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان :
(اذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مفاصله) فان حلقة الكوفة كانت تعرف
هذه القاعدة ولا تحتاج اليها . ومع ذلك سلمت مفاصلها . ذلك بأن الأسئلة
لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر . ولم
يكن الجواب يصدر فور البديهة وانما يصدر بعد البحث في المؤتمر . ولم
يك وليد الفكرة وحدها وانما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها فكيف لا توجد
القوانين الموضوعية ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولاً للأشياء ! .. ان
الضعف الانساني يجبره طول المران والايمان والتعاون والاخلاص . ولقد
أخذ الله الميثاق على العلماء ليبين العلم وانهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبي حنيفة قول الشعبي (لا أدري نصف العلم) فرشقه
بكلمة لاذعة قال : (فليقلها مرتين ليكون له كل العلم) !

وجرى حديث هذه الدروس في شبه الجزيرة وفي العالم الاسلامي كافة،
وشاركت الخمس والخمسون حجة التي يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة
ومسجد الرسول بالمدينة في اذاعة أنبائها ، فالشيخ في مكة والمدينة في كل عام
تقريباً يناظر ابن جريج فقيه مكة ، والأوزاعي فقيه الشام ، والليث بن سعد
فقيه القسطنطينية ، بل الليث يعمل على الخروج للحج اذا خرج أبو حنيفة
ليناظره .. والشيخ يجلس في المسجد الحرام يفتي أهل المشرق والمغرب ،
وكبار الناس حضوراً ، لا يرى أصبر منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة ،
وهو كل الليل والنهار في طلب الآخرة حتى لقد شوهده عشر ليال لا يهدأ

الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم • والناس يزدحمون حوله في المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويفتيهم كأن المسائل في كفه بخرجها فيتناولها إياهم في أدب يأسر القلوب ! •

كان يفتي يوما فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق امام الشيعة - الذي قيل انهم رويوا له ••• كتاب - ففطن أبو حنيفة له فقام وقال : (يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رأني الله أقعد وأنت قائم) قال له : (اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي) •

وفي مكة احتاج الوالي الى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبي ليلى : اكتب فكان اذا كتب هذا شيئا أفسده هذا حتى اذا قدم أبو حنيفة على الأمير قال الأمير : احتجنا الى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبي ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدر أن يقول شيئا • وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء في ساعة فكتبه • قال له صاحبه : (لا تقل الحائك فان الحائك عندي من لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويستروح الى سب العلماء) •

فاذا ذهب الى المدينة لقي زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لا يكلم أحدا الا قطعه ولكنه يرفق اذ يكلم مالكا : كانا يتدارسان بعد العشاء في مسجد الرسول حتى اذا وقف أحدهما على القول الذي قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة • ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة في مجلسهما !

قصدا يوما الى الحرم النبوي معا ومالك قابض على يده يمشيان فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله . وكان مالك يجلس سفيان الثوري دون المجلس الذي يجلس فيه أبا حنيفة • ولا عجب فان سفيان كان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه ، واذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب •

ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالكا بحجابه • قال الامام الليث :
(لقيت مالكا في المدينة فقلت له : انى أراك تمسح العرق عن جبينك . قال :
عرق مع أبى حنيفة . انه لفقيه يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن
قبول هذا الرجل منك • فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق
ونقد تام) •

ومع ذلك كان مالك يقول « ما أحلمه » • ولولا حلم أبى حنيفة عليه
لما تركه يتفصد عرقا !

ترى أية لحظات في تاريخ الانسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة
من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب في جوار النجم الأكبر الذى
مايزال يبعث شعاعه الى الوجود الانسانى ! امام مصر ، وامام دار الهجرة ،
والامام الأعظم ، في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم ! •

فأى رجال • • وأى خيال • •

وهكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ في اتساع
الدائرة واشتتار المدرسة •

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد امام
مصر ، ومالك ، والأوزاعي ، وابن جريح ، وجعفر الصادق ، وابن اسحق
صاحب المغازى ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى ،
وابن شبرمة ، والحسن بن عماره ، وحمزه المقرئ ، والجرجاني عبدالكريم
ابن محمد ، وقتادة المحدث ، وحماد بن زيد امام البصرة ، وأبو مقاتل
السمرقندى ، وخارجة بن مصعب امام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر
ابن كدام ، وعمر بن ذر ، وعمر بن عبيد ، هؤلاء الزعماء الفكريون
وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الاسلامية بالنور وكانت لهم مع
أبى حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواءهم وآراءهم بأضواء الكوفة وعلومها
بين الحين والحين ، فكانوا يرون في بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع
أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم في الكوفة
أو في البصرة أو في مكة أو في المدينة خلاصات التفكير الاسلامى في كل

أرجاء الامبراطورية الاسلامية الى دراساته ، فيلقحها بلباق جديد ليطبعمها
بالطابع العالمى الشامل . حتى اذا جادله سعيد بن أبى حجر ذات يوم قال :
يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة ! » .

حقا لقد انتهى اليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ
ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا
عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الاسلامى
وروافده لا تكاد تنقص شيئا . تلتقى تيساراتها فى مدرسة الكوفة منبعاً
أو مصباً ..

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها
أسلمت دولة بنى أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة
المفكرين روحاً جديداً أمدتها بأسباب الحياة .

الباب الرابع

العفو

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

قرآنه الكريم

ارتفع الفكر الاسلامى فى هذه الحلقة الى اسمى ذرا الادراك ، بينما كان العالم المعروف يسدر فى جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد ، بما لم يجىء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، يشيع فى الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معلنا آيات التسامح والتيسير والحرية • تسامح بين الانسان وأخيه الانسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ، ثم حرية فى الآراء والأشياء لا يحدها الا العقل والعدل وعمارة الدنيا •

حرية فى الدنيا ومغفرة فى الآخرة اذا تحققت أولاهما وقام الأمل فى أخراهما كانت الحياة جديرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها - فليست الحياة نكالا للأحياء ، ولا الآخرة جحيما مروعا ، وإنما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا يياسوا من مغفرته للخطيئة •

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال « رحمة مهداة » ما خير بين أمرين أحدهما أيسر الا اختار ما هو أيسر • وان لنا فى رسولنا الأسوة الحسنة •

وهذا الأستاذ الشديد فى حق نفسه ، الرفيق فى حق الناس ، اذا خير بين التيسير عليهم والاعنات لهم فان خياره فى اليسر بلا مرء . فعقيدته فى الايمان أنه يتم (بالتصديق بالقلب والاقرار باللسان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر) •

فاذا صدق قلبك بالله وأقررت بايمانك بلسانك فليهنك أنك مؤمن . ولا بأس على ايمانك اذا لم تقم بالأعمال النى أوجبها الدين أو التى دعا اليها ، أو اذا ارتكبت وزرا غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاة والزكاة أو عمل الخير عامة أو ارتكبت المعاصى •

واذا ارتكب الانسان كبيرة من الكبائر - كالقتل أو الزنا أو السرقة - فلا يفقدن الأمل فى عفو الله فهو اذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع

أن يتيقن أن الله معذبه عليها بل هو ما زال من المؤمنين (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) •

بل ان الأجل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأستاذ (أفضل لخصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والآخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة •• والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة .. وجميع ما أمر الله به من فرائضه في جنب الاقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة في جنب السموات السبع والأرضين السبع ••)

أما الشرك فظلم عظيم لا يغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان •• ومن قال لا اله الا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله •

وعسى الله أن يتوب على الناس •

ولئن (خلق الانسان ضعيفا) ان عليه أن يعمل صالحا في الدنيا ويتوب عن الخطايا مستقبيا على نفسه نعمة الايمان آملا في الغفران يوم الحساب •

تلك مقولات أبي حنيفة وهذا تسامحه ، في حين كان الخوارج يقولون حول الكوفة والبصرة وفي كل مكان انه لا ايمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، فترك الصلاة كفر ، وعدم الصيام كفر ، ولا ايمان لمن صنع ما نهى الله عنه • فالقتل كفر والزنا كفر ، وأما المعتزلة فكانوا يقولون ان من لم يعمل بما أنزل الله فاسق : لا هو مؤمن ولا هو كافر ! في حين كان هؤلاء عند المعتزلة والخوارج فسقة أو كفارا ، كانوا عند أبي حنيفة مؤمنين يجمال الدعاء لهم ، والرجاء فيهم والأمل في أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل — وهم جماهير المسلمين غير المعصومين — وعلى ذلك قال مقولته الجامعة (أهل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الايمان ترك شيء من الفرائض) نالا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

ولم يذهب مذهب جهم بن صفوان في القول بعدم وجوب الاقرار بالايان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة • ولم يذهب مذهبه

في الجبر وهو قوله ان الانسان مسير لا مخير محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول (لاجبر ولا تفويض ولا تسليط . والله لا يكلف عباده ما لا يثبتون . ولا أراد منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذي عنده .. ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب) .

ذهب مالك والشافعي وابن حنبل مذهب أبي حنيفة في أن ترك العمل بالأوامر الدينية لا يكفر المؤمن ، فالناس يعاملون تارك الفرائض ويزوجونه ، ويرث فيهم ويرثونه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا ان الايمان يقوم على التصديق والاقرار والعمل أيضا ! فانه داخل في الايمان ! ثم قيل ان الايمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لو كان ركنا وانتقض ، انتقض الايمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال : ان من أجزاء الشيء ما لا يندم الشيء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للانسان والأغصان للشجر فإذا انعدمت بقي الجسم حيا ! وقيل ان العمل ثمرة الايمان تتبعه وتوابع الشيء قد يطلق عليها اسم على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول ان العمل المطلوب .. هو عدم العمل .. أي عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود للأصنام ..! أما ابن حنبل فقال بتكفير تارك الصلاة دون غيرها من الفرائض !

ويرى أبو حنيفة أنه لا تفاوت بين الناس في الايمان لأن الايمان لا يزيد ولا ينقص ! لا يزيد بعد اذ كمل ، والزيادة ليست اتماما للايمان لأنه من دونها بلغ الكمال وهو يتم بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بايمانه ، ولا يزيد اذا تكرر الاقرار .

فلا تخف اذن منافسة الناس في ميدان الايمان ، ولا تخف تشريهم ، فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدين لله . والغفران مأمولا منه فقيم يقول الناس بتكفير الناس . ان ذلك كله متروك له سبحانه ، واذا كان اللازم في الايمان الاقرار والتصديق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرجأ الى يوم الحساب .

وعلى المسلمين أن ينظروا في أمورهم وأن يذكروا الله في حياتهم
ولا يتعرضوا للفتن .

ولذلك فليس من رأى الأستاذ الخوض في أمر قتلة على وعثمان فتلك
دماء طهر الله منها يده — على حد تعبير الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز
لما سئلا عن قتلى صفين — فليتنظروا من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم
أى الفريقين كان على صواب . أو كم اقال أبو حنيفة عمن يخطئون من
المسلمين عموما » . . . لكننا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى
(خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) حتى يكون الله
سبحانه وتعالى يقضى بينهم ، وانما نرجو الله لهم لأن الله عز وجل يقول انه
لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ونخاف عليهم بذنوبهم
وخطاياهم) .

ومن أجل ذلك نسبوا اليه (الارزاء) وهو ما يترجمه المستشرقون
بالفرنسية (بالتأجيل) وفي الانجليزية (ترك الأمر لله وحده) .

كان بالمسجد يوما فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف .
فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فان أجبت نجوت والا قتلناك . قال :
أغمدوا سيوفكم برؤيتها يشغل قلبي . قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب
الأجر الجزيل باغمادها في رقبتك ! قال سلوا اذن . قالوا جنازتان بالبواب
احدهما رجل شرب الخمر فمات سكران والأخرى امرأة حملت من الزنا
فماتت في ولادتها قبل التوبة : أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم : من أى
فرقة كانا ؟ أمن اليهود ؟ قالوا : لا . قال : من النصار ؟ قالوا : لا . قال :
من المجوس ؟ قالوا لا — قال ممن كانا ؟ قالوا من المسلمين قال قد أجبتكم .

قالوا هما في الجنة أم في النار ؟ قال . أقول فيهما ما قال الخليل عليه
السلام فيمن هو شر منهما (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور
رحيم) وأقول كما قال عيسى عليه السلام (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر
لهم فانك أنت العزيز الحكيم) .

فتكسوا الرؤوس . . . وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجداله القوى الاعتراف بأن مرتكبي هاتين المعصيتين مسلمان • وأضاف أن الله يغفر لمن يعصى رسله ، فالعصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد في جملتها وتفصيلها وما يزالون •

فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، في وقت كان الشك فيه في الايمان مهدرا للدماء •

أيا ما كان الرأي فان لأبى حنيفة — وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة — هذه اليد العليا على المسلمين اذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المتقين منهم ، ولم يقض على أمل غير المتقين في يوم الحساب ، وبهذا حببت الحياة للأحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب في الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفرة ، ملائكة الرحمة في الحياة الآخرة •

وبعد فما هو طابع فلسفة أبى حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذي يتحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذي تديره في بساطة فتمكن من كل ما وراءه ؟ ••

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية هو التيسير ، والتسامح والحرية •

حرية وتسامح وتيسير بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس ، وفي الأقوال والأفعال والأموال • والعبادات والآراء • وفي البيع والشراء • وفي كل الاشياء •

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يوما لماذا قضى برأى أبى حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ما عنده •

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدونهم على أن يخرجوا ما عندهم لتقوى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم •

ففى ذات يوم انتهى معهم الى رأى فى مسألة — وكان تلميذه عافية الأودى غائبا — فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها •

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته (لا يدخل علينا من ليس له عقل هندسى) فان أبا حنيفة طالما قال (اللهم من ضاق بنا صدره فانقلوبنا قد اتسعت له) •

ولقد طالما قال (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) •
افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس الى أن نودى بالظهر ، فكان اذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر عندما نودى بالظهر .. فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال لا تطمعن بالرياسة فى بلد يكون هذا بها ••

وبهذه الحرية التى كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح • قال رجل : أخطأ أبو حنيفة • فقال آخر : كيف يخطئ ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقية من التلاميذ وقال : من كان هؤلاء جلساؤه لم يكذب يخطئ لأنه ان أخطأ ردوه .

وكثيرا ما تجد فى المسألة الواحدة أربعة أقوال لكل من أبى حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه •

فى هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتى عام ما لم يقله الناس الى اليوم فى انجلترا وفرنسا ! وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه : — ان من حق المرأة أن تجلس على كرسي القضاء •• قاضية فيما تقبل فيها شهادتها ••!

كان يقول ان من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب ••
بكرا كانت أم ثيبا ، دون تدخل وليها ، لأن ذلك تصرف منها فى خالص حقها — ولئن كان لوليها حق الاعتراض فى حالة عدم كفاءة الزوج ، ان أبا حنيفة يقيد هذا الحق بعد جواز استعماله اذا حملت الزوجة جملا ظاهرا أو ولدت •

وكان يقول ان البكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج
بينما تجيزه المذاهب الأخرى •

في هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما يفرد به الانجليز اليوم
في شرائعهم من أن الحجر على السفية أو ذى الغفلة غير جائز لأن في الحجر
عليهما اهدارا لآدميتهما . بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما تحكيما لقوله
تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) — أما أبو خنيفة
فيشرح رأيه بأن مالك المال انسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف
الشرعية ، ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يسنع عنه ماله ! واذن
فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأديبا له ، والانسان في أول أحوال
البلوغ قد يفارقه السفه لقربه من زمن الصبا . ولكن بعد تطاول الزمن به
تلايد من أن يستفيد رشدا . فحسبه حبس ماله عنه حتى تصل سنه الى
خمس وعشرين .

أما عن الحجر على السفية بعد البلوغ رشيدا فيقول : لا أحجر عليه لأن
النص انما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه في التصرفات . وأما قياس
الحجر على منع المال فهو قياس الأعلى على الأدنى . اذ غاية منع المال عنه
ابطال نعمة زائدة والحقه بالفقر ، والفقر لا ينافي الاهلية ولا الانسانية ،
أما الحجر عليه فهو الغاء عباراته بعدم ترتيب آثارها عليها ، وفي هذا ابطال
ولايته وأهليته والحقه بالبهايم ، وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم
وأجلها وهي البيان الذي يمتاز به الانسان عن الحيوان .

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منطقة الفقه الى عالم الاقتصاد .
فلئن كان العلماء المحدثون قد دقوا الطبول لحرية التجارة في العصر
الحديث ، ان مبادئهم لم تكن خافية على أستاذ الكوفة ، الذي يأبى التدخل
في قانون العرض والطلب ، ولا يجيز التسعير الجبرى على الناس . ووجه
قوله كما روى الشافعى هو « سد باب التحكم على الناس في أموالهم التي
لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » . قال عليه الصلاة والسلام (لا تسعروا)
فإن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق (والثن حق العاقد اليه تقديره .

ولا ينبغي للامام (الحاكم) أن يتعرض له الا اذا تعلق به ضرر للعامة ، لكن الأستاذ اذ يعترض على أن يتحكم الحاكم في أثمان العروض يعترض على أن يتحكم أصحاب العروض في العروض ، فلا يبيح احتكار الأقوات ، اذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو ضيق عليهم .

ولا ينفرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يشمل عطفه قوت الحيوان ، فتلك حالة دفاع عن المصلحة العامة يفضل فيها النظام على الحرية . كما يفضل في حالة الفتنة فلا يسمح ببيع السلاح خشية الأذى .

وتناهت به الحرية الى أن أصبح عدو القيد حيثما وجد القيد . وآية ذلك ما ذهب اليه في نظام الوقف باعتباره قيда لحرية الناس في تداول المال .

فلقد ذهب الى حد القول ببطالانه . ومن نسبوا اليه أنه يجيزه قرروا أنه يجيزه في ثمره العين الموقوفة لا في العين نفسها ، فانها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول الى ورثته بعد مماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه في شأن الثمرة كلزوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخرة ، ولا يسكن اجباره عليه بحكم القضاء .

لكنما كانت بصيرته تخترق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأي الحى الذى تأوى اليه أفئدة الناس بعد قرون وقرون .

ويطول بنا السرد لو رحنا نتقصى وقائع التيسير في تفكير أبى حنيفة فالتقتصر على بعض الامثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الوضوء حيث قال « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » .

فاذا طبق أبو حنيفة هذه الآية لم يحملها غير ما حملت من الفروض الأربعة وهى غسل الوجه وغسل اليد ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما غيره فقالوا ان على المتوضيء أن ينوى أنه سيتوضأ قبل أن يتوضأ .
وأنه اذا غسل عضوا قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن
ينوى . أما هو فلا يجعل النية فرضا ، وعنده أن الرجل اذا دخل الماء
قصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف
على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا ان على المتوضيء أن يتبع ترتيب الآية : الوجه فاليد فالرأس
فالرجلين ، أما هو فلا يرى ذلك فرضا .

وقال قائلون ان على المتوضيء أن يتابع غسل العضو بغسل العضو
الذى يليه قبل أن يجف العضو الذى تم غسله . لكنه لا يرى ذلك فرضا .
ولا كراهة عنده اذا لم يتتابع الغسل فلربما ينسى المتوضيء . ولربما يفرغ
الماء فيعمد الى احضار غيره ويجف في ابان ذلك العضو المغسول .

وبينما ينتقض الوضوء فى المذاهب الأخرى بمجرد لمس النساء
والأجنبيات ، بشهوة عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض
الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينقضه اللمس وانما تنقضه المباشرة
الفاحشة ..

تلك نظرات الأستاذ المسماح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم
خطر إعادة الوضوء فى كل وقت ، وخطر فراغ الماء ، فى أزمنة وأمكنة لم يكن
فيها الماء ميسورا كما نجده الآن .

وكما يسر الأستاذ على المتوضئين يسر على المصلين .

فهو لا يكلف من يصلى بأن يرفع يديه اذ يفتتح الصلاة ، وهو يجيز
أن تفتتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجنبية وان كان المصلى
قادرا على النطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه
وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط فى الافتتاح لفظ التكبير نفسه ،
بل يصح بالتسبيح كقول المصلى « سبحانه الله » أو بالتهليل كقوله : « لا اله
الا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية مع قدرة المصلى على قراءتها بالعربية — ولو أنه قيل انه رجع عن ذلك رأى .

وكما يسر على المصلين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية « ذات الأربع ركعات » وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكتف بتجويز ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير ايجابا .. وحقيقة مذهبه فى ذلك أن الله لم يشرع فى السفر الا ركعتين فلا يلزم المسلم أن يصلى أربعا ، ولو نوى أن يصلى أربعا لا يقع فرضا الا ركعتان والباقي نافلة .

وتجاوز التيسير عنده العبادات ليتجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد انعكست أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا (المعروف عرفا كالمشروط شرطا) وصارت « العادة محكمة » حتى اذا عمد تلميذه محمد الى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه بل قصد الى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم .

وتوج الأستاذ سماحة رأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفيعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . اذ كان وهو التاجر العريض الثراء يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه الا قدرا محددا (أربعة آلاف درهم) هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقا لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرنا . وأضاف الى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يختص بماله تلاميذه ، بل يشرك فى أمواله الناس جميعا ، معلنا لهم أن ما يصيبونه منه ليس الا حقا لهم وان كان الله يجريه على يديه .



كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث واليك بعض الامثال :

فالنوايا فى فقهه كالبواعث فى الفقه ليست هى الأسباب . والأحكام تبنى على الأسباب لا على النوايا لأنها ليست ظاهرة . فإذا ساءت النية وظلت خافية ، وحسن السبب وبرز للأعين ، فإن التصرف يصح شرعا فى أمور الدنيا . وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب . وعلى الحرية لا على التحكم .

وان من قواعد أن اليقين لا تزيله الشكوك :

فإذا كان زواج المتعة محرما شرعا لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة مدة من الزمن على غير ما يرمى إليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطا أبديا فقد ذهب البعض الى إبطال الزواج إذا كان قصد المتعة فيه مضمرا عند العقد . لكن الأستاذ يرى البحث فى النوايا مخطرة يكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار . وإذا كان قصد المتعة خافيا عند العقد فكيف يتأكد منه الناس ! .

ولهذا أباحه وان نوى الرجل أن يبقى زواجه مدة نواها ما دام لم يذكرها فى العقد .

ومن الأحكام الشرعية أن المرأة إذا طلقت طلاقا نهائيا لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه . يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال إليه فلا يستعمل الا عند انقطاع الأسباب وأن على من جازف بالطلاق يدفع مثلما اندفع فيرقب خيبة الزواج الثانى . والتسريح من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود إليه ، وهى احتمالات آخرها أعسر من أولها ، ينتقل فيها المطلق من مجهول الى مجاهيل ، تعذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذى تفزع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول إذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقا للوصول الى الزواج القديم . وأن الزواج الجديد ليس الا (المحلل) الذى يعقد على المرأة فيتزوجها على أن يطلقها لتعود الى الزوج القديم .

هل يتحقق في هذا الزواج قصد الشارع . أم هو غير مقصود لذاته .
وانما مقصود به ذات السيد القديم ؟

في هذه المسألة ذهب أئمة الفقه مذاهب شتى . وبحسبنا أن نعرض
بعضاً منها .

قال أبو يوسف : ان زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجة أن تعود
للزوج القديم . وقال محمد : ان زواج المحلل صحيح لكن الزوجة لا تعود
للزوج الأول لأنه يستعجل ما أخره الشرع فيعامل بنقيض قصده .

وقال مالك : ان زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب
الشهود ان علموا . وقال ابن حنبل : ان الزواج باطل .

أما الشافعي فله رأى وسط بين الآراء انتهى اليه بعد أن قدم الى مصر
قال : اذا ورد عقد زواج المحلل مطلقاً بلا شرط فيه وكانت نية الزوج أن لا
يمسكها الا قدر ما يصيبها ليحللها لزوجها الأول فان الزواج صحيح ولا تفسد
النية شيئاً منه لأن النية حديث نفس وقد ينوى الشخص الشيء ولا يفعله .
أما أن تزوج الرجل بشرط أن ينتهي الزواج بالدخول واللمس ليحللها من
زوجها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة في التحليل مختلفة كما ترى . وهى من قديم ليست
محملاً للاتفاق .

أرسلت امرأة الى رجل فزوجته من نفسها ليحللها الى زوجها فأمره عسر
ابن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده ان هو طلقها أن يعاقبه .

أما الامام الشعبي فقال : لا بأس بالتحليل ان لم يأمر به الزوج .

وأما الليث بن سعد - امام مصر - فرأى رأياً رقيقاً قال : ان تزوجها
ثم فارقتها لترجع الى الأول فان بين الثانى ذلك للأول بعد دخوله بها لم يضره .

وهذا الاحسان الكريم الذى يشير به الليث قد روى مثله عن أبى
الشهداء وشهيد كربلاء حتى ليخيل للمباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته
جسلة وتفصيلاً . قالوا : ان الحسين بن على لم يتزوج أرينب بنت اسحق

رغبة في مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام اذ خدعه معاوية فأنفذ اليه الرسل أن سيزوجه من بنته ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطلق أرينب في انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر الى أرينب في العراق يخطبها لولى العهد يزيد بن معاوية — وكانت قد شغفته حبا . فلجأ الى أبيه يستفتيه فدبر له الأمر على ما نرى — حتى اذا بلغ الرسول العراق لقي الحسين ، فقال له الحسين اذ عرف رسالته : انى كنت عزمت على الزواج منها وأردت الارسال اليها ولم يمنعنى من ذلك الا سؤال مثاك . فاخطب رحمك الله على وعلى يزيد ولتختر من اختاره الله لها فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت (اخترلى أرضاهما لديك ، قال : انما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك وانما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بدا من القول قال : «ابن بنت رسول الله أحب الى » .. فاختارته وساق الحسين اليها مهرا عظيما . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ، ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة درا ، فاحتاج اليها بعد أن أهדרه معاوية ، وقصد الى الحسين يعلمه خبر ودائعه . فلما أخبرها الحسين قالت : هى عندى بطابعه الذى طبعه عليها ، قال الحسين لعبد الله : ادخل عليها وتوف مالك . قال : أو تأمر بدفعه الى جعلت فداك . قال : لا حتى تقبضه منها كما دفعته اليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هذا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بدره ، فحشا من الدر حثوات . وقال خذى فهذا قليل منى لك . واستعبرا جميعا أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذى سمع منهما فقال : .. أشهد الله أنها طالق ثلاثا .. اللهم انك تعلم أنى لم أستنكحها رغبة منى في مالها ولا جمالها ولكنى أردت احلالها لبعلها . ولم يأخذ مما ساق اليها في مهرها قليلا أو كثيرا وحاولا أن يرداه اليه فلم يقبله وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله اليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الاطلاق ولو شرط فيه أنه (عقد للتحليل) أى صرح فيه بأن الزوج يتزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .

تتحصر مطاعن خصوم أبى حنيفة فى هذه المسألة فى أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويقولون ان الآية يراد بها مؤدى العقد وهو الاستمرار لاحرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أموراً متفقاً عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعتمد اليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والاصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة فى المحلل يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم ، ثم ان دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأة ترافعت اليه فى الموضوع وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة فى مسألة المباشرة - المس - مذهب شاذة قليلين على رأسهم سعيد بن المسيب لم يوجبوها ، فذلك مذهب لا يخفى أنه فى غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به قاض لا ينفذ لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق الا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبى حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غيرها من العقود كعقد الزواج ، وانما لكل امرئ ما نوى وقد سلك الطريق المفضية الى الزواج فى ظاهر الشرع .

ثم ان المحلل غايته أنه نوى الطلاق اذا وطئ المرأة وهو مما ملكه الشرع اياه . كما لو نوى المشتري اخراج المبيع من ملكه اذا اشتراه ، أو نوى فى عقد الشراء اتلاف المبيع واحرقه ، أو اغرقه فلا يقدح ذلك فى صحة البيع ، ولو اشترى عصيرا فى نيته أن يتخذه خمرا ، أو جارية وفى نيته أن يكرهها على البغاء . أو سلاحا وفى نيته أن يقتل به معصوما ، فكل ذلك لا أثر له فى صحة البيع .

فالتمسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شيء وانعقاد العقد القانوني شيء آخر ، والدين لله ، والدنيا لنا .

وإذا طبق الفقيه النص تطبيقا يحتمله ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس ذلك احتيالا كما يحتال أرباب الحيل المفقوتة ، مثل التحايل للربا ، أو بمنع الصدقات . كمن يفتى الرجل بأن يهب ماله لآخر إذا أوشك العام على الانتهاء . ثم يستوهبه إياه فلا يتم عام على المال في يديه ولا تستحق عليه الزكاة . وكالارتداد لفسخ الزواج . أو ذلك الساخر الذي حلف ألا يأكل رغيفا أو قطفا من العنب أو قمحا . فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف الا لقمه ! والقطف الا حبة .. ! وطحن القمح وأكله خبزا . فذلك هزل بارد لا يستساغ .

وبحسب أبي حنيفة فخرا أن التاريخ لم يرو عنه أنه سخر براعته في التخريج والتكليف لخدمة سلطان أو نصره ذي جاه .

قال الشعبي : (لا بأس في الحيل فيما يحل ويجوز ، وانما الحيل شيء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به الى الحلال . فسا كان من هذا ونحوه فلا بأس به ..) وحضر سفيان الثوري مجلسا فلما أراد الخروج منعوه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك فعله كالناسي لها فلما خرج عاد فأخذها وانصرف .

ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جارية له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت : لو وجدتك على الحال التي كنت عليها لوجأتك ! فأنكر ، قالت : فأقرأ ان كنت صادقا . قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرين !

قالت الساذجة : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى !!

وبلغ ذلك النبي فضحك ولم ينكر عليه هذا التحيل باظهار القراءة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصا من غضبها لتفهم أنه ليس جنبا حيث لا يقرأ القرآن الا المطهرون .

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم فى فقه أبى حنيفة من الأسول
التي تشور فى وجه الاحتيال . وكم باهى الفقهاء بالحيل فى حل مشكلات
الايسان .

بحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التي أدهش بها الليث بن سعد بلاط
الرشيد : قالوا ان هرون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها « أنت
طالق ان لم أكن من أهل الجنة » ثم ندم واستحضر العلماء من شتى الأقطار
فلما اجتمعوا سألهم فاختلفوا .. وكان فى آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد
سأله فقال : اذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم ، وأمر باحضار
مصحف ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فلما
انتهى الى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : أمسك يا أمير
المؤمنين . ثم استحلفه بالله قائلاً : انى أخاف مقام ربي فقال : يا أمير المؤمنين
فهما جنتان لا جنة واحدة ! . قالوا فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر
— ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر ! — فقال له الرشيد : أحسنت
وأمر له بالجوائز والسلع وأمر له باقطاع الجيزة ، بل ولا يتصرف أحد فى
مصر الا بأمره .

وروا من حيل أبى حنيفة أن رجلاً أتاه بالليل فقال : أدركنى قبل
الفجر والا طلقت امرأتى . قال : وما ذاك ؟ قال : تركت الليلة كلامى فقلت
لها ان طلع الفجر ولم تكلمينى فأنت طالق ثلاثاً . وقد توسلت اليها بكل أمر
أن تكلمنى فلم تفعل — قال الشيخ : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن
قبل الفجر فلعلها اذا سمعته أن تكلمك واذهب اليها وناشدها أن تكلمك قبل
أن يؤذن المؤذن . ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت : طلع
الفجر وقد تخلصت منك . ! قال : قد كلمتني قبل الفجر وتخلصت من اليمين
أما مخارج أبى يوسف فكانت غداء شهيا للرواة . وسنرى فيما بعد
بعض ما قدموا اليها منها .

فى فترة معاصرة وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) نسبة خصوم
أبى حنيفة الى أبى حنيفة وقابله الرأى الفقهى فى كل مكان بالاستنكار لما فيه
من مخارج تؤدى الى الكفر الصراح .

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحدا من صحبه لم يضعه فان مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتابا له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا (ما وضعه الا ابليس) فقال عبدالله بن المبارك : « الذى وضعه أبلس من ابليس » وابن المبارك — كما قد علمت — تلميذ أبى حنيفة .

كان الأسلوب التعليمى لأبى حنيفة يضاهى الأسلوب التعليمى فى أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمى ، تجرى فيه التطبيقات العملية على وقائع حية تنطبع فى الذهن وتنضبط فى الوصف ، لأن العمل وحده هو الذى يثبت العلم ويثبته ولهذا أنشئت نظم (الأقسام) فى الجامعات لتدريس التطبيقات ، وهذه الدراسات العملية فى القانون تقابلها دراسة التشريح فى الطب . ودراسة المعامل فى العلوم وما إليها .

ولعلك لا تجد قضية كفضية (أم عمران) بين القضايا التى يتدارسها الطلاب فى معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبى حنيفة أيما استعراض ! شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق .

كانت بأم عمران جنة وكانت بازاء جامع الكوفة فمر بها رجل فتناوشا فقالت له : يا ابن الزانيين .

وكان القاضى فى المسجد قد سمع السبب . فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه فى المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حدا لأبى الرجل وحدا لأمه .

وعرفت حلقة أبى حنيفة هذه الواقعة وهى على قيد أذرع من المحكمة فى المسجد الجامع فلم تهن فى انتقاد القاضى . وقلب استاذها له الأمور اذ رد

قضاءه الى الأصول ، أو ان شئت تعبيراً عصرياً فقل أخذ « كيف الواقعة »
و « يناقش التطبيق » وقال :

. أخطأ ابن أبي ليلى في ستة مواضع .. !

الأول : أقام الحد في المسجد و لا تقام الحدود في المساجد .

الثاني : وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً .

الثالث : وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد .

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ،
وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضي بعلمه ، ومكان
التنفيذ ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب في الفقه الجنائي ،
وثبت الى خيال الشيخ فور البديهة في مكان الحادث ، وفي وقت وقوعه ،
فعلمها تلاميذه .

كان ذلك شأن أبي حنيفة فماذا كان شأن القاضي ؟

وهو من هو في تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ،
صاحب الرأي والأستاذ الأول لأبي يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء
كانت تلمع اسمائهم في سماء العراق عامة وفي الكوفة خاصة ، شريك النخعي
وسفيان الثوري وهو :

انه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمير .

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة ألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأولياؤه في الحاجة اليه سواء فقد امتنع عن الفتيا
أياماً حتى قدم عليه رسول من ولى العهد يستنبه في مسائل فقال : أنا
محبور على وعاد الرسول الى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى .

سأل رجل أبا حنيفة عن فتح خوخة في حائطه فقال : افتح ما شئت .
ولا تطلع على جارك وشكاه الى ابن أبي ليلى فسنعه فعاد الى أبي حنيفة
فقال : افتح فيه بابا ، فسنعه ابن أبي ليلى ، فعاد الى أبي حنيفة فقال : كم
قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثة دنانير قال : اهدمه ولك على الثلاثة . فجاء ليهدمه
فرفعه الجار الى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى : يريد هدم حائطه وتسألني
أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك قال الجار : كان فتح
الخوخة أهون على !!

وهكذا حاور القاضي والخصوم بين يديه حوارا عمليا أخضع الأشخاص
كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفي ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ،
وأدلى أبو حنيفة برأيه ، وأدلى الحسن بن عمار برأيه ، فقال ابو حنيفة :
أخطأنا وأصاب الحسن .

وقال الحسن : لو شاء أن يقيم قوله ويردني من قولي لأمكنه ، فعلمت
أنه ليس أروع منه .

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول : « والله ما أدركنا
أحدا تكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا احضر جوابا منك وانك لسيد من
تكلم في الفقه في وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك الا حسدا » .

الباب الخامس

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى
تعطيه كلك ، وأنت اذ تعطيه كلك
من اعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)

آلت الى أبى حنيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاذه قرابة عشرين عاما سبقتها دراساته ورحلاته ، فاذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وان أول ما يعظمهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للافتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهنى والاستعداد الروحى .

مرض أبو يوسف مرضا أشفق عليه منه فكان يتعبده حيناً بعد حين ، وسار اليه آخر مرة فرآه مقبلاً بعد أن أبل فرجع ثم قال « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير . » فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبى حنيفة ، وقصد اليه الناس يتحلقون حوله ، واقتضده الشيخ فعلم جملة الخبر . فطوى السنين القهقرى واسترجع الذكر . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه ، وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا اليه صديقا سيره اليه بحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع الى قصار « وهو الخياط الذى يقصر الثياب » ثوبا ليقصره بدرهم ، فصار اليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم ان صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فردده اليه مقصورا فهل له أجر ؟ فان قال له أجر قل أخطأت . وان قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبيا « وكان أبوه على ما قيل خياطا » ولعل هذا سر اختيار السؤال ، فاذا عجز الأستاذ الحدث عن الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فتعسا للعلم الذى يدعيه .

ومشى الرسول يحث الخطى الى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ
يجيب ، قال له أجره . قال أخطأت فأطرق مليا ثم قال لا أجره له قال أخطأت
.. وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ .. وانطلق
من مجلسه انطلاق السهم الى الرمية الى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك الا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى .

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلسا يتكلم في دين
الله ، وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب في مسألة من مسائل الاجارات !!
أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى .

أبو حنيفة : ان كان قصره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصره لنفسه
وان كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجره لأنه قصره لصاحبه .

أبو يوسف : !! .

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه . . !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدرارا وعاد الى الحلقة بعد أن ذاق وبال
أمره ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة (اعلم ان العمل تبع
للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل
مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لا بد منه فى المفازة مع
الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير) أو قوله (من تكلم فى شىء من
العلم وتقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت فى دين فقد
سهلت عليه نفسه ودينه وقوله (من طلب الرياسة فى غير حينه لم يزل فى
ذل ما بقى) ولذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام (لا تعلموا العلم لتباهوا
به العلماء ولا لتمادوا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك
فالنار النار) .

ولما تقدم حماد بن أبى حنيفة يوما ليصلى بالناس أخذ أبوه بمجامع
ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : يا أبت تفضحنى ! قال « بل أردت

أن تفضح نفسك فمنعتك اذ لو صليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر في الكتب ويبقى عاره الى يوم القيامة ! » .

ولما أخذ يعلمه وجهه الى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجأده حماد بقوله (ألسنت كنت تأمرني به) قال « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » قال « ولم » ؟ قال يا بني ان هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزع الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ثم قال « كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رؤوسنا .. وقد بلغنى أن قوما يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام .. وانما همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فاذا بلغ الكلام هذا الحد ، فتركه خيراً . وفي عبارة أخرى من عباراته « كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

واذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة الى العلم وأهل العلم وهذا انصافه للعلم من نفسه ومن ولده ، فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل انه ليضيف يدا الى أياديه عليه فيهديه ، ويجادله بالتى هي أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته فى نفسه مواجهة المستزرى . لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه ، ليكون فى حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد كان هذا الصنيع الذى صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفئة الأستاذ الموفق يهدى فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملاً أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ، ولم يملك بتلميذه ذلك المكر الجميل .

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كآز أسنانه سقطت فعبرها له معبر بسوت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له تكون أطول أهلك عمرا فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف الى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس جماع علومه
فأضحى يقول (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت اذ
تعطيه كلك ، من اعطائه البعض على غرر) .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى
مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة . وبفن آخر هو الطريقة المثلى للاقناع
هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويحيل الصعاب بسائط
.. هو تقديم العلم فى وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب الى القلب
واستيلاء المتحدث من فوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك الا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع فى طاقتها
أن تبعث الى أنفس الناس شعاعا دافئا دافقا كأنه الكهرباء .

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه « يا هذا ..
ان بقلبك لشرا أو بقلبي » .

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس . كما تجلت فى مناهج الدرس
فسيطر على تلاميذه بالتقصد والترفق ، والصبر والترفع فلم يكن يؤكل فى
حلقاته لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه الى الاستغفار
لهم ، فملك الباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان
يستيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما أدنى الى الهدى من
الملاحاة ، وأن الغيبة قذف فى السامع قبل أن تكون قذفا فى الغائب ، وأنها
على كل حال لعنة على المغتاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه فى أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما
يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به
وأعززه بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة
والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد
أبا حنيفة عن الغيبة — ما سمعته يغتاب عدوا له ! قال : هو أعقل من أن
يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد ! قال « هو فضل الله
يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك بيضع قرون قال الحكيم الفرنسي لا برويير « ان
التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها
وتجليها »

ولما سئل الفارابي . «أنت أعلم أم أرسطو ؟ قال « لو أدركته لكنت
أحسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني
أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبي حنيفة اتق الله ، فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال « يا أخى جزاك
الله خيرا ، ما أحوج الناس في كل وقت الى من يذكرهم الله تعالى وقت
اعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .
ولم يدخل عليه داخل وخاض في حديث الناس الا قطع عليه خوضه ..
وكان يقول (اياكم وثقل مالا يحبه الناس من حديث الناس . عفا الله عمن
قال فينا مكروها ورحم الله من قال فينا جميلا . تفقهوا في دين الله . وذروا
الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم) . .

قيل له هذا الذي تفتينا به هو الصواب بعينه . قال « ما أدري عسى
أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمطي قبل خروج يوسف الى البصرة
(.... ومن مرض من اخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك .. ومن تكلم
فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل .. وأفش السلام ولو على قوم
لئام) ثم كشف له عن السحر الذي يسحر به الفقيه مناظريه قال (ومتى
جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك واياهم مسجد ، وجرت المسائل

أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافا ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك . فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء . فإذا استمروا على ذلك وألقوه ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك . وإياك والحق وان غدروا بك . وأد الأمانة وان خانوك) قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه . ويقول اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك .

كان هذا الخميص الصائم الذي لا تجد في داره الا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البضائع الى بغداد فيشتري الأمتعة ويجمع الأرباح ليشتري بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويمونهم ، ثم يدفع اليهم الدنانير قائلا « أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا الا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم . مما يجريه الله لكم على يدي .. »

فلنختصر في السرد ولندع عنان الحديث لأبي يوسف حيث يقول : (كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال ، فجاءني أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فأنصرفت معه فقال لي يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج الى المعاش . فقصرت عنه كثيرا في الطلب وآثرت طاعة أبي . فتفقدني أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي . فجلست ولما انصرف الناس دفع الى صرة وقال : استمتع بها فاذا فيها مائة درهم . وقال لي : الزم الحلقة فاذا فرغت هذه فأعلمنى . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت) .

كان أبو يوسف في نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء الى الحلقة تاركا حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب
المجد جميعا : العلم الدينى ، والعلم الدنيوى ، وأموال تكاد لا تحصى ،
ووظيفة دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هرون الرشيد .

فلنرجع البصر الى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله
ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله (لا حسد الا فى اثنتين ، رجل آتاه الله مالا
فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها
ويعلمها) وبهذين الحكمة والمال را ح يتحدى الحسد ، فيمنح المال فى سبيل
الخير ويقضى بالحكمة ويعلمها ، منحا ليس له أول ولا آخر . وتعلما يكاد
تفسيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحيا مرهف الحس ،
يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى فى الميعاد ،
وقديما قال الحكيم العربى (خير الخير أوحاه) . وأقدم منه قول الرومان
(ان من يعطى فورا يعطى مرتين) . والبدار فى ذاته فضل ، ثم هو يعطى فى
غيبة الناس فلا يشهد على العطاء الا نفس صاحبه ، فى أناقة مظهر تسوس
بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهى تدفع المال الى اليد الأخرى دون
رنين أو التماع . فتقدمه فى صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب
فى اسماح ينكر البصر ، كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه ان هو
خلق ثياب التخرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب ، وكذلك الذى
ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك
الجلس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذى لا يجلس فى ظلاله !
يصنع الصنيع دائما فى استخفاء وعلى استحياء ، وفى تلتطف كتلتطف الملتبس
يقطع بأنها السجية المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فإذا شكر أنكر الشكر
ونقله الى شيخه حماد .

قال أبو يوسف (وكان يعولنى وعيالى عشرين سنة وإذا قلت له ما
رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حمادا . وما رأيت أجمع للخصال
المحسودة منه) .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده .

قال لأبي يوسف ينصحه (وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة في العلم) وتلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ ، وعن الغائب حتى يرجع ، وعن غير المريض وغير الغائب ، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حمادا بعطف كما اختص تلاميذه . قال عصام : (لم يكن لأحد من الحق كما لأبي حنيفة على أصحابه . وكان الذباب اذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه) .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا لم يك الا أمثالا ميمونة العواقب . ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده . وفي الأخرى دعاه الى الاستزادة من العلم ، فأوتى منه بسطة سمت به الى أرفع الذرا بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : (انى لأدعو له قبل أبوى وسمعتة يقول أنى لأدعو لحماذ مع أبوى) .

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه بينما يسوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه . وكلاهما على الانصاف . لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه .. وعلى النحو الذى كان يدركه أبو يوسف بقوله : (تغسد الله أبا حنيفة برحمته ، وجازاه خيرا ، فانه أطعنى الدنيا والآخرة اطعاما) .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه ان الحديث نفسه ليشي بمقدار ما كان يتوخاه من اخفاء — والوقائع التى سردنا من قبل تنم عنه وتقرره — فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه .. لقد أعلنها الحسن بن زياد اذ كان يلزم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن ، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمتى . واجتسعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلسه وان كان فقيرا أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيبا من العطاء حتى يتعلم ، فاذا تعلم قال له : قد وصلت الى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفاً بالافضال على كل من جمعتههم به الأسباب . ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مرارا ، ويسره اسراراً ، غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصرد ، مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سموا أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها في ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالاتفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هي المبدأ والمنتهى . والأمل المشتبهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مأب الآخرة .

ويرتفع الفضل الى سماء ما طاولتها سماء اذ يصنعه صاحبه ليتمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى ، فعنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى في حياة أبى حنيفة ، وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده في الاتفاق وفي التهذيب ، في اخلاص للعلم كأنه العبادة . جاء اليه رجل بكتاب شفاعاة ليحدثه فقال (ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه) .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هى الفكر ، فاذا خلف المفكرون من بعدهم أفكارا فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى في النقصان بقدر ما تتناهى في التداول والتعامل . وأما الفكرة فهى النور تتناهى في الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى في الازدهار كلما أرهقها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون ، وإن ما يتركونه صدقة للعالمين فإذا سألت عن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمنكرين شعرت بالشذوذ في السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول ، وإن حصل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجفان الشرى إنما الفكرة شيء الهى فهي كائن حتى لا يموت . وهى الجوهر الحر الذى يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء — ولا يخلد المفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبى حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين أستاذه فى شجرة النسب العلمى ، يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدي ربه . قال « ماصليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدى وانى لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً ، ومن علمته علماً » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البوارى . وهو هو الذى يوزع الدنانير آلافاً مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ، قال : الله تعالى للعيال .. وإنما قوتى أنا فى الشهر درهمان .. ثم قرأ « وفى السماء رزقكم وما توعدون » .

أما الظاهرة الثانية فهى أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن ي خلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفى تاريخ مصر الحديثة خلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته ، وتلاميذ سسوا الى أرفع ذرا المجد فى ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي . كما كان محمد عبده فى الإصلاح الدينى وسعد زغلول فى الإصلاح السياسى وإبراهيم الهلباوى فى المحاماة ، مع قليل من

الرجال والمؤلفات ، هم السجل الذين حصر التاريخ فيه تركة الزعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من ايران ، ورود آباء الامام الأعظم .

ولأن يبنى الرجل الكبير رجلا كبيرا خير على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف اذا بنى رجالا كبارا عظماء .

فلعل النفس الانسانية خير ما عبرت به يد القدرة الالهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح يبنى المسالك وقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبنى الرجال من جديد ..

ان من الرجال من كان أجدى على الانسانية من احدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهما عندما احتضن أبا يوسف ومحمدا وزفر والحسن وباقي الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، فى جهد يومى متصل ، يهدف الى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع فى النهر الجارى ، فيربو الوشل ، وتصبح الحففات من الماء فيضانا زاخرا كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعلن وجودها فى أجلى مجاليه ! .

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الانسانى قوة عارمة ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليومى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طيننا فى سماع التاريخ وأنعاما فى فم الزمن .

بهذا بلغت مدرسة أبى حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فاذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة الكبار ، فيضعون أيديهم على مصاير التشريع الاسلامى فى شتى بقاع الدولة ، وغدت الأسماء التى تلونها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلا باسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الانتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غرار الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله ، واذا بالمدرسة تخرج نساكا وزهادا الى جوار الحكام .

فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويالها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا الى السعادة في الدنيا ، لا تبتلا محضا أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس على ارتياده في سبيل الله ، ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الرباني والدافع الانساني معا .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الاسلامية في أزهى عصورها حضارة ، أعظم رجالاتها جدارة ، نعى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا في عين الدولة وأعين الناس ، اتجاها فكريا جديدا هو الاتجاه المفرد الجدير بالاسلام .

كان العناية الالهية قد كشفت لأبى حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة (لكأنى بك قاضيا) ! وهى النبوءة التى قال عنها الرشيد فيما بعد (لعمرى ان العلم يرفع دنيا ودينا) وترحم على أبى حنيفة ثم قال « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين عندما توفى أستاذه كما كان أرسطو فى السابعة والثلاثين اذ مات أفلاطون . واذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك . فان رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم فى حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدي والهادي والرشيد ، وبلغ مجده أوجه فى عهد الرشيد اذ نقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى القضاة أو عالم العلماء (موبدان موبد) . كان هو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى أرجاء الدولة وكان يؤاكلة ويحج معه — عدلا له على بعير — ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد (جاءت به معتجرا ببرده) وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الاسكندر ، تلميذين في عمر الورود لأستاذين في خريف العمر . كتب له في كتاب الخراج يقول : (وقد كتبت لك ما أمرت وشرحت لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فاني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا ..)

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عند ما مات وأمر بدفنه في مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زييده أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق في فراشه . سمعه سامع فقال: لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفعّل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثا في السماع الواحد ثم يقوم فيملئها على الناس ! ..

أتيح لفقه أبي حنيفة على يد أبي يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح اذ يهيء لها القدر رجالا في دست الأحكام . وهي ظاهرة تولاهها المؤلفون الغربيون في السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقها رسميا بالقضاء وبالافتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه في كراسي القضاء . حتى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبي حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة — كما عبر أحد خصوم أبي حنيفة — (لأن العلم والسلطنة حصلا معا) .

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا في بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفي بالعراق والمالكي بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفي لقاحا جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملي الذي يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة وبفقهاء الأمصار وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها في الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه فى كل مكان حتى انه ليجعل ابنه يوسف قاضيا على الجانب الغربى من بغداد واماما للحجيج عندما حج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف . كان شريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس العام وسأل عن يصى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبى يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وياله من سلطان على صاحب السلطان ! كان اذا حزبت الأمور فزعوا اليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات .

زعموا أن زبيدة غاضبت هرون الرشيد — فحلف الرشيد يمينا بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبا وشغفها ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط .. ! فاشتد الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس فى الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت فى أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله ؟ ..

ألا ان نصر الله قريب . ان فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف أفنتا فى أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !

فليات أبو يوسف بالخوارق . قال .. فلنبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد .. فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد ..

والله سبحانه وتعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لامامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فان أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهل مكة : يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت فى صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبتهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت الينا في الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف في حضرة الخليفة .. !

أفلم يكن الرشيد على حق اذ يقول : « هاتوا لى مثله » !

خوصم اليه أمير المؤمنين الهادي في بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له . لكن الحق كان لخصمه . قال الهادي لأبي يوسف : ما صنعت في الأمر الذي تتنازع اليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين ان شهوده على حق . قال الهادي : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبي ليلى يراه . قال الخليفة أرد البستان عليه .. !

لكنه اذ يحتال ليرد الهادي بستان الرجل اليه لا يحتال من أجل من دونه : شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوما فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للعبد . وان كان كاذبا لكذلك .

بل انه ليحلف الرشيد في قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات اليهم .

جلس الهادي يوما للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من عمارة في شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : ان كانت الضيعة لى فهي له ، وان كانت له فهي له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر الى أبي يوسف تقول ما ترى في كذا ؟ وأحب الأشياء الى أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعثت اليه بحق فيه فضة ، فيه حقائق مطبقات ، في كل واحدة منها لون من الطيب ، وفي

جام دراهم وسطها جام فيه دنائير فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها) قال أبو يوسف (ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن ..)

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتخرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها .

وفي سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : اللهم انك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدًا ، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، كلما اشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه (وعرف الناس وصيته ... ١٠٠ راية ألف لأهل مكة ، و ... ١٠٠ راية ألف لأهل المدينة ، و ... ١٠٠ راية لأهل بغداد و ... ١٠٠ راية للبلد الذي جعل صبي القصار أستاذًا للرشيدي يهب مئات الآلاف ! نعى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الخلفاء كأبي يوسف ومع أنه تتلمذ على أبي يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته . ولي قضاء الرقة للرشيدي ثم عزل ثم عاد الرشيدي فاستقصاه وأدناه :

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب ، أما الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة (العالم والمتعلم وكتابه لعثمان البتي عن الأرجاء والفقه الأكبر ووصية أبي حنيفة ان صحت) فهي تدور حول العقيدة ، وأما كتب أبي يوسف فقد قيل انها بلغت أربعين كتابا لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهدا على عبقريته كتابه « الخراج » الذي كتبه للرشيدي يصره بالحكم جوابا لطلبه — وأما كتب محمد فهي المعروفة بظاهر الرواية السير الكبير والسير الصغير (في فقه الحرب) والجامع الكبير (وهو في التفسير والأصول) والجامع الصغير (وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة) والمبسوط أو (الأصل) وسمى كذلك لسبقه

الكتب الأخرى فى التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والكيسانيات
والرد على أهل المدينة (وهو كتاب رواه الشافعى) وقد قرىء أكثرها على
أبى يوسف .

واذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الاسلام ، وغمر
العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقى أوربا وبقاعا من روسيا
وأصبح مذهباً رسمياً فى مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات
قد دبت فيها الحياة فان لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الكبرى
فى آثارها .

ان المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من
ذوات القطع الكبير ..! كان الفقه بحاجة الى الصون فحماه محمد بذلك
السور المنيع الذى تتألف حجراته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق .

وكان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة
الأولى ليأتلف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله الى الدنيا اليد
السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه فى
طريق الخلود فتراه العصور جميعاً .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضى القضاة » أن
يكون فى الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن
السلطان ، اذ هياً له نجاته من زحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فتفرغ للعلم
حتى عهد فى أعماله الشخصية الى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف وكان
يحيل أهله على الوكيل ويقول (لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فان
فيها شغل قلبى وخذوا ما بدالك من وكيلى فانه أفرغ لقلبى) .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى
قالت زوجته عن مؤلفاته (هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر) .

رحل محمد الى المدينة فى حكم المهدي (سنة ١٥٨ الى سنة ١٦٩)
ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطا » وتعتبر روايته للموطا

من أجود رواياته واختلط بالكسائي في عهد الرشيد فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه .

قالوا : جلس الكسائي يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا الكوفي قد استفرغك وغلب عليك . فقال الرشيد : يا أبا يوسف انه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي . لكن جواب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك في مسألة ؟ فقال « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائي : تلقى على أبي يوسف فقها !! قال الكسائي : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق ان فتحت الدار (وفتح الهمزة في أن) قال أبو يوسف اذا دخلت طلقت . قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال الكسائي : ان قال أن وجب الفعل الطلاق وان قال ان فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي الى الرشيد . ولما حشر الشافعي الى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد في انقاذه . وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه .

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال (وهل رأيت فقيها قط الا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فانه كان يملأ العين والقلب . وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه (كان محمد اذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفا ولا يؤخر) وقال (ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد على) .

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد الى منزله ويخلو به الى آخر الليل .

قرأ الشافعي كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين فما هو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينهل من

مالك وينهل منه الشافعي الذي علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعا .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الايوبى أن عالما يهوديا كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وانما نسبها لنبي أشهد انه على حق . فأسلم .

قال الملك : ان هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه ومسائله معروفة ، فان من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالما بارعا بستة علوم أولها الكتاب العزيز والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيدا لهذه العلوم لم يعرفه الا تقليدا .

أقبل الرشيد يوما على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا الا محمدا ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال « كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . انك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) وانه انما أراد بذلك العلماء ... » قال الرشيد صدقت يا محمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويالها من عقيدة ! لكن الاسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما في حضرة الرشيد وضد الرشيد .. وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء ... !

لقد كان الرشيد حنيا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماما موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السير » بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل ابن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقلة ، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زمانا حتى رفع السعاة عن يحيى ما يريب ، فسئىء به وضاق به ذرعا ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولا ، و (المسلمون عند شروطهم) كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ودعا محمداً وقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد .. ما تصنع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً ! وطلب الرشيد فقيها آخر هو أبو البخترى فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل مائة فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البخترى الذى اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟ قال : حدثنى .. عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام 1.. وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد 1..

ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء .. وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد . وكان هرون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع انه كان يبعث الى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع الى الفقهاء وكان انفاقه على العلماء اغداقاً ، يعهد بأولاده اليهم بل كان يخدمهم . وفد عليه أبو معاوية الضير وجىء بالطعام فأكل بين يديه . وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه
صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد (دفنت اليوم اللغة
والفقه) .

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحباً أبى حنيفة يجرى اسمهما فى
التاريخ على أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً فى مجلس الامام
وبقى طيلة عمره مشتغلاً بالعلم ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء
واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل .
ولم يخض الغمرات الى الدنيا فلم يتعرض الى ما تعرض له الصاحبان (أبو
يوسف ومحمد) .

كان أقيس الحنفية . وكان أكبر التلاميذ سناً فرأس الحلقة لما هوى
النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رئاسة الحلقة أبو يوسف
شك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكاً القاضى فقال : طلقها ثم راجعها
وسأل الثورى فقال ان كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء الى زفر فقال هى
امراتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذة أن الشك لا يزيل اليقين كمن
توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثورى فقد
أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا
أدرى أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات ..

شهد النضر بن اسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما
وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال لأنه يبيع الصلاة (اذا

كان اماما في المسجد يتقاضى في الشهر دينارين (فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء (اذا كان قاضيا بأجر) فأجابه شريك فاذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتي !!

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكا فلما بصر بهم قال : وراءك يا حماد .. لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل السماء ..

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتي بالدليل من غير حشو فاذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند الى اسطوانة المسجد منتصبا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثيرة اركض في أيها شئت وانتهى الأمر بأبي يوسف الى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة الى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الامام الأعظم : (هذا الامام من أئمة المسلمين في حسبه وشرفه وعلمه) . وفي سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه الى لقاء امامهم في الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤي فقد تتلمذ بعد وفاة الامام على أبي يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب (المجرد لأبي حنيفة ، وأدب القاضي . والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال) وعمل في القضاء وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى — وهو الذي كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة ليمير بناته — أضحى له ممالك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله في فتواه : أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفا لديه فاكثرى مناديا يقول : ان الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد اليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل الى الحق .

وكان اذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فاذا قام من مجلس القضاء عاد الى ما كان عليه من الحفظ !! فاستغنى من القضاء .

وفي سنة ٣٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبي حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة ببغداد كلها بالبصرة ،
وتخرج ابنه اسماعيل عليه وعلى أبي يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء
بالجانب الشرقي ببغداد وبالبصرة والرقعة .

وتخلى يوسف بن خالد السمتي للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدي اليه
من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيهما مندل - وكان أصغر وأشهر -
قال مندل موجهها نظر الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضيا على المدائن للرشييد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ،
ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة أتمم مسار قلبي وجلاء
حزني ..

وتولى حفص بن غياث للرشييد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاما وقضاء
بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة في دين ! .

كان جالسا للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ
الخصوم : فلما فرغوا لبي دعوته .

ولما عينه أبو يوسف في قضاء الكوفة بعث الي أهلها يقول : يا أهل
الكوفة أنشروا دفترا لتكتبوا نواذر قضاياه .

وأما عبدالله ابن المبارك فكان إماما في الفقه وبطلا في المعارك . كانت
أمه خوارزمية ، وأبوه تركيا وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ .. ولما
مات أمر الرشييد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلي : يروي عنه الامام أحمد بن حنبل . تولى
القضاء للرشييد ببغداد وواسط .. وقيل تزوج بنت الرشييد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتا في الحاققة ينقطع الى العبادة ويخرج من الدنيا في حياته ! .. أرسلت اليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فاعادها لمصدرها ، وردّها الرسل مع بدرة تماثلها وغلّامين قال لهما . ان قبل البدرتين فأنتما حران فذهبا اليه قالا : ان في قبورك عتق رقابنا قال : انى أخاف أن يكون في قبولها وهق رقبتى في النار . رداها اليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا ...

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده اسماعيل ابن حماد (أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار الى أبى يوسف وزفر) .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم ! وفي سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير قليل وقيل ..

وقيل بالتخير في فتواه ان خالف الامام صاحبه

وقيل من دليله أقوى رجح .. وذالفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبى حنيفة وتلاميذه . جاءوا الى الحلقة غفلا مغمورين . منهم الحفاة والعراة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمدا للفقهاء الاسلامى ، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التى نقلها اليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصرا أساسيا فى نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : (.. قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا وما هو الا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال والبحرى ألا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان ..)

كانوا كأطيار الفجر يشرقون بالنور الذي سيحيى .. يدركون وهم
بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه
نحن الآن معهم ، وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ
هوميروس فيقول (كلما قرأت هوميروس نظرت الى نفسى لأتحقق مما اذا
كنت قد ارتفعت عشرين قدما فوق الشرى !..)

الباب السارس

فالعراق

« الناس سواسية كأسنان
المشط لا فضل لعربي على
عجمي انما الفضل بالتقوى »
حديث شريف

وبعد فانا لا نفهم حياة أبى حنيفة اذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالانسان ابن آباءه واقربائه . وأرضه وسمائه وأشياء ليست أعصابه التى يجس بها أجزاء نفسه فحسب ولكنه يفكر بما فى حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

ان هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها .. ! وما أصغر ذلك الشئ البديع المسمى بالانسان الى جوار تلك الأشياء الجلييلة التى تسمى بالدنيا . وان كانت من دونه ليست هى الدنيا .

ذر قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول فى التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليا . واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة . وأظفر الله عليا فى واقعة الجمل فنازلت جيوشه فى صفين جند الشام اذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه حتى اذا اقرر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكما كتاب الله . وقبل على التحكيم فخذله الحكمان . وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسألله « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهر وان . وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخفقت المؤامرة فى عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء (الحسين بن على وعبدالله ابن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر) ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار الى معاوية .
ثم قال : فان هلك فهذا وأشار الى يزيد .
ثم قال : فمن أبى فهذا وأشار الى السيف .
قال معاوية . اجلس فانك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف . والسيف أصدق انباء . ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صيوتها بالرماح . وبعث الشيعة (أنصار على بن أبي طالب) من أهل الكوفة الى الحسين يبايعونه فصار اليهم مع أهله ، فقتل هو ، واخوته ، وأبناء عمه في كربلاء .

وفي سنة ٦٤ سارت جنود الشام الى مكة تقاتل عبدالله بن الزبير . اذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن . أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبدالملك بن مروان . وولى عبدالله الزبير على الكوفة المختار ابن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير ودعا المختار ابن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبدالملك بن مروان بجيشه الى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فما هو الا أن التقوا فحولت جموع الكوفة براءوسها ومالت الى عبدالملك ، وقتل مصعب بن الزبير . وقدمت رأسه هدية لعبدالملك ! .

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبدالله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب حتى سالت الدماء الى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبي فقيه الكوفة ، وسعيد ابن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى . وتزاحف الجمعان في دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عن عفا عنه كالشعبي وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك الى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الاسلام في افريقيا .

وفي سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفي سنة ٨٩ فتحت صقلية . وفي سنة ٩٣ خفقت أعلام الاسلام على سواحل الأطلس في الأندلس . ووقف موسى بن نصير في ربوعها يفكر في فتح أوروبا . فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث يقول : أما والله لو انقادوا الى لقدتهم الى رومية !

وفي الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين فقتل . وفي سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل في خراسان .

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارث الثائرة بين بني أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكذ يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم في خراسان ودخل مروفي سنة ١٣٠ نيسابور سنة ١٣١ . وجاء رسله الى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (سنة ١٣٢) وكان التيار في الكوفة يجرى نحو أولاد علي بن أبي طالب فحولهم أنصار العباسيين الى بني العباس . وهرب مروان الى مصر حيث قتل .

وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبي حنيفة بثمانى سنوات .

في هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الاسلامى وبلدانه : أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف . وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ - ١٧) لتكون معسكرا تلتجىء اليه الجيوش من برد الشتاء فبنى أبو موسى الأشعرى مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة . وفي سنة ٣٦ وقعت في ضواحيها وقعة الجمل ، وفي سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفي (سنة ١٧ - ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت في موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها في وسط المدينة وبنيت الى جواره دار الأمانة . فلم يكذ ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياما وأكوخا وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكذ تبني حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولا تها في السنوات الأخيرة لحكمة ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحووا من عشرين عاما (سنة ٧٥ - ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك . حتى اذا ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشعبها وشقاقها ، وهى قصبه الاقليم فى عهد بنى أمية ، وعاصمة الدولة فى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الاسلامية العربية فى الاقليم . لكن العراق صنع بالوافدين اليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الاقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عربا وان كانت تحمل حضاراتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الاسلام

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص الى عمر قائلة انه لا يحسن أن يصلى !! وشكت البصرة أبا موسى الأشعرى لأن له غلاما ختارا (غادرا) هو كاتبه زياد بن أبيه اذ كان له مائدة وبرذون وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم واليا .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محارباً فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة بن شعبه . وطردهوا سعيد بن العاص .

ولما قدموا على عمر يشكون سعدا - قال « من يعذرني من أهل الكوفة - ان وليتهم التقى ضعفوه وان وليتهم القوى فجزوه » . قال رجل « أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » قال : « من هو » قال : (عبدالله بن عمر) (ابنه) قال : « قاتلك الله : فمنذ اليوم لا أسميك الا المنافق » وقال « المغيرة يا أمير المؤمنين ان التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » - قال « صدقت فأنت القوى الفاجر .

فاخرج اليهم » . وفي فتنه ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصحتهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب الى الخليفة : (والله ان أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون الا قليلاً حتى يخالفوك . ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشر على ابن عفان فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا اليه فقتلوه ان الحديد بالحديد يفلح)

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرناً وربع قرن من الزمان واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظنوا يرون خلافة الأمويين غصباً وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا في الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية : وما يزال لهم بضعة عشر من الملايين في العالم الاسلامي كانوا يرون أن علياً أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون انه وصى النبي على المسلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول انه معصوم ، وغلاً البعض فآلهوه ، وانشعبت الشيعة شيعاً وأفرقا حاربها بنو أمية حرباً ضروساً ، فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموي يقول لان يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل علي !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفي عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة في الانحسار . وشرعت الرياح تهب رياء لسفائن الشيعة يزجوها دعاة بني العباس . فألف على ابن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبي وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان ، فلما دخلت جيوش أبي مسلم اقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الشوار .

بويج لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة بقواده . فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوى ليكون جديراً في التاريخ باسمه

(السفاح) وراحت سيوف العباسيين تحصد الرؤوس وتقذف الجماجم ،
ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدأوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، واثنوا الى قبر عبد الملك ، فلم
يجدوا ما يصنعون فيه مثلة ثم وجدوا ضالتهم فى قبر ابنه هشام . فألقى
السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسياط .. وصلبها .. وحرقها . ثم ذراها
فى الهواء !.

فى هذه المجزرة التى ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة
الى افريقيا ، لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية
بن هشام بن عبد الملك . عبر البرزخ الى أسبانيا سنة ١٣٩ ليتمكن فى اثنين
وثلاثين عاما لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد .
فأنشأ — على التعبير الحربى — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب
وأن ينقل خلال البحار) والأجيال ، تلك المدنية التى ازدرت فى فجر التاريخ
فى أثينا واسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعثت حركة الاحياء
العلمى RENAISSANCE من مرقدتها بعد أن مرت فى طريقها — كالرسالات
وكالبرد المائى والهوائية — بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما
اليها .

ولقد يخيل الى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة ، لكنها فى
الواقع كانت اهتزازات الجسم الذى يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحانا
لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ،
وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما فى ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة
الفتوة .

كان القرن الأول استجماعا لقوى الأمة ، واستعدادا لعهدتها الجديد ،
فلقد أدت الامبراطورية السياسية التى وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة
هى حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجىء وهو طور الحضارة
كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التى ألفها كيان الأمة الا
كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الاسلام نفسها فى
الوجود ، بأسلوب جديد .

واذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الاسلام بالغزو فقد كان على الدولة الجديدة فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الاسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

فتعالوا اذن أيها المفكرون ، واحدا اثر واحد ، واسكبوا فى تيار الحضارة الذى لا يتوقف الا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب الى الابتكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم ... لقد دنت فترة انتقال وأتتم همزة الوصل . فصلوا الماضى بالحاضر . وقولوا كلمة الفكر . ان كلمة الفكر هى العليا .

انطلقت العقول الاسلامية ظمأى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة . فنقلت الى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية . ولئن صح أن اسطفان وماريانوس وابن ابجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن ابجر رئيسا للمصلحة الطبية ، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ان هؤلاء لم يكونوا الا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم الى العالم الجديد فى عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبا للمنصور وليمارستان جنـد يسابور .. ثم توالى الأسماء ترى : قسطنطين لوقاوسيد النقلة : روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى . ينقلون من الفارسية . ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية . وابن وحشية ينقل من النبطية كتباً فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها . وجاء المأمون بعده بصنع أكثر مما صنع . وانتقل الروح العلمى الى وجوه الدولة واذا ببيت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن اسحاق وحيش بن الحسن وثابت

بن فرة ، يدفعون لهم شهريا خمسمائة ديناراً للترجمة والتعريب كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسي (الكتب الفارسية) وابن ماسويه من جامعة جند سابور للقسم اليوناني (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ونشر ما تتضمنه المترجمات من علوم . وأنفذ الى بلاد الروم سلماً صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهم ليجتثوا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف الى ثروة الأمة التي كان ينحصر تراثها العلمي - في الجاهلية - في علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب الى فيثاغورس واقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو ، والى النظم السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الاسلامي في حريته الى أبعد الحدود حتى لترى بيتا كبيت (أبي الجعد) فيه ستة اخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب عني الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة وأضيفت الى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبي بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى واسطفان بن باسيلي ينقلون السريانية الى العربية . وعلى بن زياد اليمنى واسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق الى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم . ولم تبق الترجمة سهيلاً للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فاذا بابن الهيثم يبيع في كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخة هي (اقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطي) بمائة وخمسين ديناراً يعيش منها طول العام .

لهم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التي وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التي يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها في جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد في سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاج

(جورج أو جرجس) من جامعة جند يسابور وأبل على يديه فانزله وعلماء جند يسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . واذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فان أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمة للعقول .

فالقاه الاسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثرا للوثبة الاسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وان المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها الى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصويرا كما صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلک كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الاسلامية التى يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعيا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الاسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت الى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الالهية لنصرة الدين . وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التى عاصرت فى تحضيرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انبعثت تلك الفكرة التى خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بإنشاء المدينة التى لم ير مثلها الزمان الى ذلك الزمان « بغداد » .

ليست مصادفة تلك التى جعلت بالعراق حلقة أبى حنيفة كالجامة فى النصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمد بن على بن عبد الله بن عباس وابنه ابراهيم الامام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس .

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ،

وأزيعمد أبو جعفر الى الانتفاع به فى المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتناهى الرشيد فى الإعجاب به فيكلل بالمجدهامات تلاميذه . ليست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر ، يسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وانها يد العناية تحرك الانسانية نحو مصايرها المحتومة . تريد لرسالة الاسلام أن تصل بين عهدي الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثا فى التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضى فى ظلام الليل المتكاثف، فحملت الحضارة الاسلامية الى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق فى الغرب سنة ١٤٩٣ الا بعد أن كانت دولة اسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية فى الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٩٣ . واذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والاحياء RENAISSANCE فى العصور الحديثة ، فأى مجد للاسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى وفتح حربى !

هذه النصره التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس ، لم تكن لها مشابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ، فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب أحد . وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدي الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، ان الفقه الاسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، افاق ألواح

جوستنيان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت الى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقي الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمع العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المشرقين أن هناك « آثارا لا تنكر INDjABIE » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الاسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، وإذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدره من المحيط الجغرافى والاجتماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فانه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقة وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع اسلاميا صراحا فى منابعه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشيء أجنبى أو عالج أثرا أجنبيا .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثير الا بعد ان تقدم الخصوصيات المتشابهة التى يستند اليها الزاعمون فى الأصول والفروع . وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه اليها القائلون بوجود هذه الآثار « التى لا تنكر » . كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعا ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائن أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة فى مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه فى الشرائع فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشرى توافق العقل . وإذا تشابه العرف فى البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة

قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة ، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس
برأس الحلقة نحو ستة عشر عاما .

أما (الشافعي) فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ،
حتى اذا انتقل الى بغداد ومصر في خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من
الآثار التي ادعاها المستشرقون . والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته
يدركون كيف، كانت كلها اسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة . وأما ابن حنبل ففقهه كله
السنة .

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ما قرره مؤتمر واشنطن اخيرا في
سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الاسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر
اليونان والرومان .



لم يكد المنصور يلي الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حربا ضروسا
في العراق وفي كل مكان ، كأنما كتب القلق على هذا الاقليم حتى ولو
صارت اليه مقاليد الأمور .. وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالبا أرجح ! انها قد تكون ثورة جهال
فيظهر فيها العلم ، أو ثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح
الجبين كالشمس بعد انفراج السحاب !! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف
عن انتصار المعاني الرفيعة في الحرية أو في الدين أو الاقتصاد أو السياسة
أو غير ذلك .. !

ان الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائما . أو كما
يقول الشاعر :

(وحسبك داء أن تصح وتسلم) .

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر والايمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم : ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوروبا ، فأنشأت الثورة ايطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الانساني من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الانسان ومكنت للتقدم الصناعى والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل .

فاذا رجعت الى العراق رأت عينك مصداق ذلك . بلدا يثور قرنا من الزمان ، على نفسه حيناً وعلى غيره دائماً ، دون أن ينضب معينه . بل ان الثورة لتقويه ، وتزكى أنفس الناس فيه فى رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقى للصحراء السورية عند الحدود الفارسية الى جبال حلوان ، من عبادان الى الخليج الفارسى . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط فى نشاط تجارى بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون بالزارادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية الى الاقليم منذ غزوات الاسكندر . وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جنديسابور فى كوزستان استمرت المدرسة ثلثائة عام رغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الاسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا فى نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لايوب قراط وجالينوس ودسقوريدس واقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم الى السريانية . كما ساعد أهل حران على التواسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحى وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التى وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هذه البقاع ترعرعت حضارة يانعة تكتنفها دىانات متتابعة .
الزارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون . واليهودية فى الشمال تسبق
الزارادشتية بنحو تسعة قرون . ثم المسيحية تنزل قبل الاسلام فى شمال
جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى . كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب
آسيا فى تلك القرون العشرين .

وكان العراق محسوبا على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بيناه
بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة اقليمه ، فتجمعت فيه اخلاط
من المدينيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب . وأرهف حس
بنيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد اسلامى ، فعلم
العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن الا أن تسكن النفس سكونها
الأبدى .

واذا عاشت الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين برزت — كالفرد —
ملكاتها الى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفتوة .

ومكن لتلك النزعات فى نفوس أهل العراق دين يجب الجهاد فى سبيل
الاعتقاد .

احتفظ العراق دائما بشخصيته حتى ان عمر لما دون الدواوين كانت
لغة ديوان العراق هى الفارسية الى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ الى العربية .
ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوسا .
أما فى خراسان — وكانت تحكم من العراق فقد كان نصر بن سيار أول من
نقل الكتابة الى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية ، ولما أنشئت
البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة
الناس فيها الى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت فى علم الكلام
وفى الاعتزال . على رأسها الزعيم الجصور الحسن البصرى وقد قيل ان
الحكمة التى رزقها جاءتته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبى فكانت أم
سلمة تناوله ثديها اذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبقي العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء حتى ان المأمون بعد نحو قرن من خلافة بنى العباس ليباهى به عجائب الكنانة !

جلس فى تواضع العالم بين اخوانه العلماء — وكان يسميهم اخوته — اذ قدم الى مصر فى أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !!

الباب السابع

ف الكوفة

« يخرج الحديث من عندنا شبرا
فيعود في العراق ذراعا »
ابن شهاب الزهري

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها . كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قصبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني فيذهب الى على . فاذا قال له على : ألا أرسلت الى ؟ قال عمر « انى أحق باتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة « أنت أعلمهم وأفضلهم » . بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها « على » .

وكان ابن مسعود أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفا دونه حتى ذاع المصحف العثماني .

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا . قال « ي أهل الكوفة . أجزعتم لأن فضلت عليكم أهل الشام . وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » ولما قدم على الى الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقا ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعا . قال على « ناشدtkم الله . انه للصدق من قلوبكم » . قالوا « نعم » قال « أشهدك اللهم انى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه . فقيه الدنيا عالم فى السنة » .

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعى وكان أشبه الناس به . وتلاههم أفذاذ فى طليعتهم ابراهيم النخعى فكان يفتى وينبسط للفتوى ولا يخاف ابداء الرأى ، ثم جاء حماد بن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وراوية ابراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج والأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثارا كالجراح ، اذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة على ، وأخذ خصومهم يخلقونها . لنصرة مخالفيه . أبى بكر مرة . وطلحة والزبير مرة . وبنى أمية مرات . كما أخذ أنصار بنى أمية يخلقونها ضد العباسيين . وأنصار بنى العباس يخلقونها ضد العلويين

و ضد الأمويين . حتى قيل فى زمن متأخر ان الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث فى مقتل على . وتدخلت أطراف أخرى فى النزاع . المعتزلة وغيرهم يختلفون ضد الخوارج ويخلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعا : كما دس خصوم الاسلام أحاديث كثيرة على النبى . ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى . بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تخلق للخلفاء وللأفراد ولكل شىء . فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام عن التمر والعجوة !

ولم يسلم أبو هريرة رضى الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبى أمر بقتل الكلاب الا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد . أو كلب زرع .. فقال : « ان أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » .

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين الى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لاحق أن يقول انه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح ابن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبى حنيفة ومغازى بن اسحق فوضعتها حسبة » !.

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا الى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة الى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاجز المدينة أنه قال عن أهل العراق « يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله « ما قيل من قول حسن فأناقلته »
فلينسب الموضوعون اذن كل الأقوال الحسنة الى الرسول ! ذلك ما عبر عنه
أحد المستشرقين تعبيرا غريبا بقوله « انهم يضعون أوراقهم على المائدة
ولسان حالهم يقول « هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو
مستحب والنبي كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي واشتجرت الآراء بينهم في
الفتاوى تبعا لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن واقبالهم على ابداء الرأي وتأثير
البلدان التي استوطنوها في آرائهم وتقليدهم ومن ثم جاءت خلافات المدينة
من ناحية وسائر الأمصار في النواحي الأخرى وبخاصة في الكوفة . اذ لم
يكن مستطاعا أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل
المدينة وقد شاهدوها وشاركوا في تطبيقها جيلا بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافا .
ولم تصل السنة الى الأمصار الا على مهل . فلم تظهر في الحياة العامة
في العراق الا في سنة ١٦٠ . بل في سجستان - في أواخر القرن الثالث
وأوائل القرن الرابع - كان الزواج يعقد في أوضاع تخالف السنة حتى طبقها
الاصطخري قاضي « قم » . وفي خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوي
هو النضر بن شميل ضيعة قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعة ثلاثة
آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين فلما اجتمعوا قال
« يعز على فراقكم . والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول)
ما فارقتكم » فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه !! وسار حتى
وصل الى مرو وخراسان حيث جالس المأمون في اقامته بمرو عليه خلقان
فأجيز بشمانين ألف درهم لتصحيحه حديثا واحدا في مجلسه .
ولم تكن السنن في كتاب ذي مناهج بعرف الناس ونصوصه ومدى
تطبيقه ، ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم . بل ان الولاة كانوا في شغل بالدنيا
عن الدين .

كان بنو أمية ملوكا دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على
رأس البيت الأموي معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها

ذهبا . قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك قال معاوية « ما أرى بهذا بأسا » . قال أبو الدرداء « من يعذرني من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه . لا أساكنك أرض » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخرجة دون أن يخرقوا ظلامها بسهام من النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعا للنظر في المصالح وتعقل النصوص يزدري الامعات الطائفة ويقول « أغد عالما أو متعلما ولا تغد امعة فيما بين ذلك » فالاستقلال والاجتهاد في الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابرا عن كابر .

ففيهم الخضوع للمسلمات اذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ واذا سيق الفكرة ففيهم ينحنى المفكر أمام المفكر ! واذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ واذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ واذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزاما أن يسير الباحث الى النهاية ، فيدرس الرواية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذي أتت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية والعباسية الكبرى ، وتجري بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة في تاريخ الحضارة الاسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم في آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شيء حائل ومتنقل الا هؤلاء ، الثابتين الصادقين عن أسباب الشحنة والسخائم ، وجودون بنشاط جسمي وفكري عجيب ، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة . فليستجب هو وتلاميذه الى الصوت الذي لا يخفت في ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذي يهيب بالمومنين أن ضعوا حدا للفوضى . وارسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام . والخطوط التفصيلية للقواعد التي تتطلبها عالم تتراعى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسي ، فلم تعد جزيرة العرب الا نواة أو مركزا للدائرة .

واذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة في عالم السياسة هو الحضارة الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة في عالم التشريع

هو فقهه أبى حنيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحرى الدقيق للروايات .
فليناقش كل شىء حتى لا تذيع الآراء الزائفة وتذهب قواعد البنيان التشريعى
الذى تأوى اليه الحضارة .

افترى كانت للمدينة المنورة فى وسط الجزيرة ، وهى قلب العالم
الاسلامى ، تصبر على هذه الحركة الثورية ؟

ان للمدينة سلطانها الدينى والتاريخى الذى تمنو له الجباه . فهناك
أقام النبى وهنالك يثوى جسمانه . وهنالك عاشت الكثرة الغالبة من
الصحابة وأمهات المؤمنين تنصدهن الراوية النابغة عائشة بنت أبى بكر .
وهنالك الرواة من هؤلاء والرواة عنهم ، يقتفون آثار زعيمى الحجاز
عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكاة ومكانة والماما
بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلماته « وبأحاديث الخلفاء الراشدين
والصحابة الأقربين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البركة
والكرامة ، تضى على كل شىء فيها فيوضا من التجلة والاكبار .

كانت المدينة كعبة القصاد لمن شاء أن يتفقه فى الدين والتاريخ
والتفسير وما اليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهاء الاثنى عشر
المعدودين — بارحها الى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله فى الدرس
قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به الى المدينة ليعود
ثانى العمرين اللذين يهز الاسلام بمفارهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حنيفة امامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى
وهو فى المدينة ، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ولم يكن من
طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطئونه وجاها بل كان
رجل تقاليد بحق . يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحد
صوته فى مجلسه . وبلغت مكاتته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور
معه المهدي فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ولما هم أبو جعفر أن يبنى

البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد ابراهيم ساوره فقال « أنشدك يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره الا غيره فتذهب هيبتة من قلوب الناس » . فصرفه عن رأيه .

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأنف مالك وتنزه عنه وهو العليم بمكانة أبي يوسف من العلم * بل قال الرشيد « ها هنا فتیان من قریش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ! » .

كان للمدينة من السلطان الروحي ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله « ان الناس لأهل المدينة التي اليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » . وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط ، المشاكل فيها قلائل ، والوقائع تتشابه وتتشاكل * فاذا عرضت مسألة فان لها أشباها في السوابق وحكما في النصوص يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيرا مما صنع آبائهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون . ومن عقيدة التابع أنه ليس كالتبوع وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أى جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة ففي ذلك الأقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذي يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة ، فاذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح المحيط الواسع الذي ينادى بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدينة كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت الى الرأى الجديد ، لا تغنى عنه النصوص القليلة المتداولة . جاؤا يدلون بدلوهم في الدلاء ، يتحرون ويقرون : لم تكدهم تهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن لتهدأ الا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادى والفكرى أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الاسلام ، وتحالف الركود الفكرى والركود العسكرى النسبى من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار واستنصم أبو حنيفة فيها مستمسكا بالرأى وبالتشدد فى قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياهم . ثم تناول الخلاف الفقهى فتحول الى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصة كقول القائل « وضع أبو حنيفة أشياء فى العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشععات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

غرب الوالى الى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرّم على الناس أن تلقاه فكانت تأتية الفتيان على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت الى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى قالوا « بيننا وبينه واحدة » قال « ما هى » قالوا : نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات فان لم تقصد الى بيته لما تعرف من اتيان الخراب والسفهاء ، فالقول ما قال . قال الأمير ان فى هذا لدليلا . » وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله قال الأمير : ما بعدها شئ جردوه . فلما نظر الى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شئ أشد على من تسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !! فضحك الأمير وقال « والله ما أضربك اليوم » وأمر بتخيلة سبيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو اسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفة فى ابطال الوقف فذهب اليه الليث بن سعد يقول « جئت مخاصما لك فى ابطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) » . ثم بعث الى الخليفة يطلب عزله وهو يقول « انك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار الا خيرا » . وعزل الخليفة قاضيا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبل اليوم فى سعة حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس
قاموا من السوق اذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة :

عندى مسائل لا شرشير يعلمها عند السؤال ولا أصحاب شرشير
ولا يصيب فصوص الحق يعلمها الا حنيفة كوفية السدور

بلى : كانت هناك حنيفة وكوفية فى جانب ومدنيون فى الجانب الآخر . بل كان ثمة مدينتان تتباريان . وان شئت فقل مدينتين أو فكرتين : الجديدة المستوفزة الراغبة فى الخلق والاندفاع والتقدمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح فى أبى حنيفة فى مجلس المأمون بعد أن كان يمدحه يعود مرة أخرى فيقول لا تروعنا كل ما تقول فى أبى حنيفة فانا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوى - وهو من أئمة الحنفية - أنه كان يذاكر فى بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب المشهور « بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبى حنيفة ؟ فقال « أيها القاضى أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال « ما ظننتك الا مقلدا » فقال الطحاوى « وهل يقلد الا عصبى ؟ » قال « أوغى » وطارت الكلمة فصارت مثلا :

ولما قامت مدرسة الشافعى بعد نصف قرن من موت أبى حنيفة برز خصم شديد . وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن . واذا بملكين : بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن ايوب صاحب دمشق يقول لابنه عيسى شرف الدين « يا بنى كيف اتخذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم الى هوة الحق فتدهور المبتدعون الى حيث تعمى القلوب واذا برجلين من « الخطابية » يستفتى أحدهما الآخر فى أن يشهد على شافعى بالكذب

فيفتيه بقوله : ألسنت تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع
فساده عن المسلمين 1100

وذاث يوم أمر قاضي الحارث بن مسكين باخراج أصحاب أبي
حنيفة وأصحاب الشافعى جميعا من المسجد .

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوما بين يدي السلطان فسألهم
فى بساطه من أين أبو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟
قالوا : من المدينة . قال « عالم دار الهجرة يكفينا » وأمر باخراج أصحاب
أبي حنيفة وقال « لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان » .

وأخيرا ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض وأنزل الله
على قلوب الحزين سكينه وأمنا فكانت نار الخلاف بردا وسلاما وغدت
وجوه النزاع سباقا لنصرة الدين . وكنوزا تقيها بين أيدينا لناخذ منها مثلما
نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقه
جبارة تأتى بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق (اختلاف أصحاب محمد
رحمة) ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال « ما سرنى باختلاف أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم حمر النعم » وأنه قال « ما سرنى أن أصحاب
محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » . ولما قال الرشيد لمالك
ليكتب « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحصل الناس عليه كقانون مدون . قال
يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح
عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا
ولا ينجم العداء الفكرى الا بين الحمقى والمتنطعين : ألا هلك المتنطعون .

الباب الثامن

فالفقه

« انى أرى، لا أكثر . وأومن لا أقل »

« أما مستقبلى فلا أضعه نصب عيني »

فيكتور هيغو

« انى أرى وأومن . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبى حنيفة فى كلمة جامعة مانعة أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فانها أمور تجيء فى المحل الثانى أو لا تجيء أبدا .

مصدر التشريع الاسلامى هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتى آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبى فى المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، اذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلا ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ، بالقول أو بالفعل أو بالاجازة ، وهو ما اصطلاحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدرا ثانيا للتشريع .

فى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبى فى نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولى شريحا قضاء الكوفة ، اذ قال « أنظر ما تبين لك فى كتاب الله ولا تسأل أحدا ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم يتبين لك فى السنة ، فاجتهد فيه رأيك » ، وفيما كتبه الى ابى موسى الأشعرى من أن « القضاء فريضة محكمة أو سنة .. الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس فى كتاب أو سنة ، أعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك » .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى الا لضرورة ملجئة ، كتب كاتب لعمر : « هذا رأى الله ورأى عمر » فصاح به « بئسما قلت . هذا رأى عمر . فان يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمن عمر ... »

ولما أفتى ابن مسعود فى صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقا ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نسائها ، وأضاف « فان يك صوابا فمن الله ، وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان .. »

الى هذا الحد بلغ تخرج الرجلين اللذين هما زعيما الرأى فى الاسلام ...!

كان الخلفاء الراشدين يستشيرون عماء الفكر من الصحابة اذا استغفلت وجوه الأمور ، وكان عددهم محصورا ، فكان الاجماع ميسورا ، وكان لأبى بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو اليه رجالا من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت فلما خلفه عمر كانوا فى طليعة مستشاريه . ولم يكن عمر يتردد فى الرجوع عن أخطائه ، قضى فى عام من الأعوام بحرمان الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم والزوج فى الميراث ، وفى عام آخر أشركهم جميعا فى ثلث المال ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقض ... ولم ينقض حجه « الشئ المحكوم فيه » كما يسمونها فى الفقه الحديث .

ورفعت اليه جارية سوداء متهمة بالزنا فحققها بالدرة خفقات وقال : « أى لكاع زنيت .. قالت مرعوش بدرهمين » تريد صاحبها الذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ما ترون ؟. وكان عنده عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، قال على : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن : أرى مثل ما أرى أحوط فقال لعثمان : ما ترى ؟ فقال انما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدقت . ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أنها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .

ورفعت اليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليها فتردد ... هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال على : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمر الى عامله أن اقتلها فوالله لو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون أربعة أخماس الغنيمة مستنديين الى ظاهر النص فى الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين هذا ما أفاء الله علينا بأسياقنا قال عمر هذا رأى . قالوا : استشر .. وأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار

عثمان وعلى وطلحة وابن عمر برأى عمر . فدعى عشرة من الأنصار قال فيما قال « قد سمعتم قول هؤلاء القسوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ... أرأيتم هذه الثغور التى لا بد من رجال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ..؟ » وأشار برأيه المستشارون .

وفى ذلك يقول أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » - ذلك بأن الخراج انما يصرف فى شئون الدولة . فيعم به النفع كافة المسلمين بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هى التى نشرت الاسلام فى الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من ذويها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولقابلت أسماعهم بالصمم صوت الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التى تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العاملين .

وفى عام المجاعة عطل عمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفا لأنه يجيع غلمانه .

وفى الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الاسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة الى تأليف القلوب بالعطاء .

وفى ما لا نص فيه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات .. فهو يعهد بالخلافة على غير عهد أبى بكر ، ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار فى العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أذاننا ثانيا لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الامام ، مع ما هو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . وانما خشى عثمان الفتنة لتفريق

الحفاظ واستشهادهم وتباعد أطراف البلاد ، واجتهد على كاجتهاده فى حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق فى الأخاديد اذ رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد واجتهد فى قضائه الذى كان مضرب الأمثال .

وفى عهد بنى أمية تفرق الصحابة فى الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازى . فلما نجمت الخلافات السياسية التى المنا بها فى الباب السابق نجم معها شر مستطير ، فاذا بالخوارج ولهم فتاوى والشيعة ولهم فتاوى ولسائر الأمة فتاوى — واذا بقبس من النور يترآى فى اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد التزاما لظاهر النص فى الآية ، وظاهر اللفظ فى الحديث ، خشية الزلل بل ذهب البعض الى القول بأنه لا فتوى لديه اذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا : أدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى عشرين ومائة صحابى ما منهم رجل يسأل عن شىء الا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثا الا ود أن أخاه كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى فى مسائل بذاتها كسفيان بن عيينه لم يك يفتى فى الطلاق ويقول « من يحسن هذا .. ؟ » ولما أعجب به ابن حنبل قال فيه « ما رأيت مثل ابن عيينه فى الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدرى » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى الا وهو يقول « اللهم سلمنى وسلم منى » بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدرى فانك ان قلت لا أدرى علموك حتى تدري ، ولو قلت أدرى سألوكم حتى لا تدري !..

سأل رجل من الغرب مالك بن أنس فقال : لا أدرى قال السائل تقول : لا أدرى قال : نعم . فأبلغ من وراءك لا أدرى ... !

وذات يوم سئل فقال : لا أدرى . فقال السائل : انها مسألة خفيفة سهلة وانما أريد أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك

وقال (مسألة خفيفة سهلة ! ليس فى العلم شىء خفيف أما سمعت قول الله تعالى : « انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ..)

وقال مالك يوما : انى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن .

وسئل أربعين سؤالاً فقال عن ستة وثلاثين سؤالاً منها : لا أدرى .
وكان علامة التابعين الشعبى يقول « لا أدرى نصف العلم » قال : لا أدرى يوما ، فقال له السائل : ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه العراق ؟ قال : لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله « لا علم لنا الا ما علمتنا » .

كانت أطراف الامبراطورية الاسلامية قد ترامت الى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك امبراطورية القياصرة ولا امبراطورية الأكاسرة الا بعض أجزائها . لقد غربت الفيالق الاسلامية الى البرزخ الذى يحمل مفاتيح البحر الأبيض لدى المحيط وشرقت كالسهم تخترق آسيا الى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تعنى نصوص بلغت من الندرة ما أحصينا ، وتخرج من الافتاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدرى » توحى بتعطيل الفتيا .. !

لم تكن الحضارة التى يجنها ضمير الغيب للاسلام ، والفتوح السياسية والفكرية التى أزهرت فى عهد بنى العباسى ، لتتم أو تزدهر فى أجواء هذا الحرج الفكرى الذى يضطرب فى قيوده الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تستبق الزمان وتستبق حضارة بنى العباس قبل أن تقوم دولة بنى العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولاً تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفقه كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والايمان به ، والقدرة التى هى شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة الى ماجاش فى صدرها من خلجات وحاجات ؟ هل فسحت المجال الحيوى لمواهب بنيتها لتربى وتنتشر وتطير

فى كل مكان وزمان على أحرف الهجاء ، كما يطير الصوت على ألف جناح
وجناح من موجات الهواء ؟ وبعبارة أخرى هل قدمت هذه الأمة الدليل
على قوتها وحيويتها وأصالة حضارتها ؟ فالدولة الحية كالجسم الحى اذا
حزبتها الأمور نبض قلبها أقوى نبضاته وتجمعت قواها تجمع الأسد
للوثوب فدفعت الى الوجود من يملأون الفراغ كله ، ويحققون الرجاء
كله ، فيدفعونها الى الامام دائما وباستمرار .

بحسبنا أن نرجع البصر كرة واحدة لنرى مقدار ما استجابت المدينة
الاسلامية الى ذلك النداء الصامت عندما تجاوزت فى جنباتها أصداءه ،
ومدى رسوخ هذه الحنيفية السمحة وتفوذها الى الأعماق ونرى الى جوار
ذلك فضل سبق الذى تفرد بقصبة الامام المجلى فى حلبة الفقه والعلم
والذى نادته الحضارة الاسلامية فى كل عصورها بأنه « الامام الأعظم » .

ففى سنة ٨٠ ولد أبو حنيفة ، وفى سنة ١٢٠ كان يلقي على الناس
أصول مدرسة الكوفة ليدونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا
من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من العلماء تاللاًوا فى سماء الدولة
العباسية التى لم تبدأ حياتها الا فى سنة ١٣٢ وازدهرت فيها الحضارة
العلمية فى أيام الرشيد فى أواخر القرن ، وفى أيام المأمون وما تلاها فى
القرن الثالث للهجرة .

أما الأوزاعى امام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس امام المدينة
ولد فى سنة ٩٣ ، وزفر ابن الهذيل ولد فى سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد فى
سنة ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٢ .

وفى سنة ١٥٠ و ٧٦٧ م هوى نجم وبزغ نجم فمات أبو حنيفة وولد
الشافعى ، وفى سنة ١٦٤ ولد رابع الأئمة الأربعة ابن حنبل ، وفى سنة ١٧٩
(٧٩٥ م) مات مالك ، وفى سنة ٢٠٢ ولد داود الظاهرى امام أهل الظاهر ،
وفى سنة ٢٠٤ (٨٢٠) مات الشافعى وفى سنة ٢٢٤ ولد الطبرى وفى سنة
٢٤١ (٨٥٥ م) مات ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمة جميعا بعد أبى حنيفة بسنين وعشرات السنين ملبين
لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذى استجابت على يديه العناية
الالهية لهتاف الاسلام .

سئل أبو حنيفة عن خطته فى النقه فأجاب « انى آخذ بكتاب الله ان
وجدته ، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التى
فشئت فى أيدي الثقات ، فاذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت
بقول أصحابه من شئت : وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى
قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين
وسعيد بن المسيب - وعد عدة من مجتهدى التابعين وتابعيهم - فلى أن
أجتهد كما اجتهدوا . »

والصحابه هم الذين كانت لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما
رأى المحدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخارى . أما التابعى فهو من رأى
صحابيا ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لى أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هى المسألة الأولى لأبى حنيفة .

واذا كان أبو حنيفة ينحنى أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول :
ان مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا
جميع عمره وان طال « فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم
بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى رأى فىنزل القرآن بموافقة
كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقة ،
ورأى أن تحجب نساء النبى ونزل القرآن بموافقة . ورأى أن عبد الله بن أبى
منافق ونزل القرآن بموافقة وموافقات عمر للقرآن والوحى ، تبلغ بضعة
عشر موضعا .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود « من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ... »

لكن أبا حنيفة اذ ينحنى أمام أصحاب الرسول لا ينحنى لسواهم من التابعين ولا تابعى التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كازاس نابليون فى سنت هيلين بعد ألف عام من وفاة أبى حنيفة : لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير منذ كنت فى برلين ؟ أجاب « لقد كان معى سيفى . » .

كان فقه الكوفة مطبوعا بطابع ابن مسعود وكان كعمر يجتهد فى رأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه ابراهيم النخعى « انه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتمعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف » .

سئل أبو حنيفة : اذا قلت قولا وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال أترك قولى لكتاب الله . قيل فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولى بخبر رسول الله » . قيل فاذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بقول الصحابى » . قيل : فاذا كان قول التابعى يخالف قولك :

قال « اذا كان التابعى رجلا فأنا رجل ... »

أجل : هو رجل والرجال قليل .

انه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كما كان بعض زعماء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الاسلام العامة كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله « أدروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » أو قوله اذا امرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعالى « لا اكراه فى

الدين » . أو قوله سبحانه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وغير هذه القواعد انكليات .

تلك المسألة الأساسية في فكر أبي حنيفة كانت نقطة التحول في الاتجاه العلمي للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الانساني وليسبر أغواره . وليقلب النصوص بين يديه في جسارة لا تهاب الافتاء ، فاذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، واذا لم يصب فالعصمة لله جميعا .

قال صاحب الشريعة : اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقاله لصاحبيه الصديق والفاروق (قولاً فاني فيما لم يوح الى مثلكما) ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقعة بدر في المكان الذي يربط فيه أخذ يقول له (.. يا رسول الله ان هذا المكان الذي أنت فيه ليس بمنزل ، انطلق بنا الى أدنى ماء القوم فاني عالم بها وبقلبها ، بها قلب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح ثم بنى عليه حوضاً فشرب ونقائل .. فنهض ففعل ذلك .

ان لأبي حنيفة برسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائماً مثاب ، لأن الاجتهاد في ذاته صواب أو كما قال أبو حنيفة « المجتهدان مصيبان والحق في واحد » وكما قال الشافعي « المجتهدان مصيب ومخطيء معفو عنه » واذا تحاض المسلمون على الجهاد في سبيل الدين ، فليتحاض العلماء على الاجتهاد في سبيل العلم .

وليقع أجر أبي حنيفة على الله مصيباً ومخطئاً ، وليشتق للناس هذه الطرائق المعبرة التي يسيرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبونها خلقت موطأة الأكناف كما هي الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثر ترويعاً من المسبعة .

ان الكشوف العظمى التي يتخذ منها العالم أبجديات حضارته اليوم كانت في ظلمات الجهل الانساني أعداما ، وكان العالم حرياً أن يظل سادراً في جهالته بها أزماناً لو لم تكشف له .

فليس بهين عمل أبى حنيفة فى اعمال الرأى اذا كنا الآن نأتى بالرأى فى كل شأن ، فان هذه الحرية الفكرية لم تتقرر الا بعد أن خط لناثلة من العباقرة مسالكنا فى الشعب واقتنت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت فى أعقابهم عصور الاحياء فى الغرب وثورات دينية وفكرية لولاها لما بلغ الناس ما بلغوه من حرية التفكير والتعبير .

أما أبو حنيفة ففض الحجب واستطاع من ألف ومائتى عام أن يقول :
انى أرى .

وفى السنن والاحتجاج بها كان لأبى حنيفة شئون أخرى .
السنة هى الطريقة .

وهى فى الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو اقرار لأقوال أو أفعال صدرت من سواه . وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل اليها ، أو اجتهدا مجتمعيا عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

والاحتجاج بالسنة يكون بالأحاديث التى تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواة الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق الوثوق بالخبر فى أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فقهاؤهم بما يوافقهم أو يجرى عليه عملهم لا يختلفون فيه ، لأنه عن مشاهدة جيل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السنة العملية ، أما أفعال النبى الشخصية كالحرب أو معاملته لزوجاته ، فتلك أمور خاصة به وبالدنيا وهو يقول « أأنتم أعلم بأمر دنياكم » .

لكن حالة الأمة والخلافات التى نشبت حرضت على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب الداخلية ، وكان كل حزب يزكى رأيه بالحديث الصحيح

والحديث المخترع ، وكثرت أسباب الاختلاق كما بينا من قبل . وأصبح الحديث الصحيح فى الحديث الكذب — كما قال الدراقطنى — كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، وفشت فى الكوفة القالات لكثرة الشقاق ، وقلة الرواة ، ولأن الثورات لم تكد يفرخ روعها بعد ، حتى كان مالك يسميها دار الضرب « ضرب العملة » ، اذ تسك الأحاديث كما تسك النقود .

وكان الثقة من الرواة يختلفون فى النصوص عن الحديث الواحد منهم من يختار كلمة تؤدي معنى بدلا من أخرى تخيرها غيره ، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه ، جاء فى نصه الخلاف بين الرواة ولم تكن الأحاديث كلها نقلا عن النبى بل كان يشترك فى بعضها الصحابة وكانت لغة الناقلين متغايرة ونطقهم مختلفا فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضه بحسن نية الناقلين باهمال ، وكثير منه خال من الاخلاص ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق يستطيع الاحاطة بجميع الأحاديث ، ثم ان من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان . فالفاروق نفسه نسي فذكره عمار فلم يتذكر ... !

سئل عن الرجل يجنب فى السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلى حتى يجد الماء فقال له عمار : يا أمير المؤمنين أما تذكر اذ كنت أنا وأنت فى الابل فأجنبنا . أما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابة ، وأما أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : انما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه فقال عمر : اتق الله يا عمار . فقال عمار : ان شئت لم أحدث به . قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت .

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث اذا رواه واحد الا اذا استشهد على روايته شاهدين . وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان اذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلت الرعدة وقال هكذا .. أو نحوذا .. أو قريب من ذا .. وكان ابراهيم النخعى لا يقول قال النبى وانما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة .. وكان الشعبى يقول « كره الأولون الصالحون الاكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت الا بما أجمع عليه أهل الحديث » .

وإذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعد أن بلغ السيل الزبى ، وهو الذى لا حجة عنده للشأب الصحيح .

أفيمنعنى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعد ! أفيقبل قول أهل المدينة أن الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !.

سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سأله أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر فقال مالك : ما أدرى ما أذان يوم . وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير الى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

ان أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالسنة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة والا فمشهورة ، وإذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ . وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تتناقلها الأجيال . وسبب ذلك أن أعمال الرسول هى وسيلة تطبيق الأحكام وردت فى القرآن يحاكيها الناس ، فيتعلمونها ويتوارثونها كأسلوب الصلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولى متواتر .

فان لم يكن الحديث متواترا فيجب أن يكون الراوى عدلا موثوقا به ينقل عن عدل موثوق به ، وأن تكون الأمة والفقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يخالفهم أحد فيه لأن هذا يدل على اقرارهم لهم ، اذ لو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التى آلت إلينا

عن عمرو بن مسعود ، روتها عنهم جماعة بعد جماعة ومنها حديث .. (لا ضرر ولا ضرار) وحديث (انما الأعمال بالنيات) .

أما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد التي يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول — وما أكثرها — فلا يطمئن اليها أبو حنيفة وإن كان الكثير منها في نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وظواهره ، والسنة ، فإن خالفت ظاهر القرآن استبعدتها وأخذ بالقرآن ، وإن خالفت السنة المشهورة استبعدتها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف وإن طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها إذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، وإذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يقبلها في الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا في الكفارات ، ولا يقبل حديثاً عمل راويه بعد روايته بخلافه ، ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو إذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقين قلائل أمرهم عمر لا يحدثوا الناس . واليك مثلاً : كان حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان وكان حذيفة يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه في الغضب ، فيطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفة أعلم بما يقول وعاتب حذيفة سلمان على هذا التعبير فتهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدرر في يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوماً أكنت تحدث الناس في زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقتي .

فلا عجب إذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط في تلقي الأحاديث . ولا عجب إذن في أن يقول أبو حنيفة « عندي صناديق من الحديث ما أخرجت

منها الا اليسير الذى ينتفع به .. » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث . ألفين منها عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان اذا هبط الكوفة يحدث بعث أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شيء من الحديث . ولا عجب مع هذا كله اذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية فى قليل جدا من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يتخير أحاديثه فى الموطأ ينقصها عاما بعد عام ، وكان ينهى ابن وهب تلميذه عن الاكثار من السماع الذى لا يحدث به ، بل انه يندم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد فى تركته حديث لم يحدث به ..

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبى حنيفة حتى ليقال ان البخارى اختار أحاديثه سبعة الآلاف — ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة — من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخارى . ! ! !

بل قال حنبل بن اسحق عن عمه الامام أحمد بن حنبل « جمعنا عمى : وقرأ علينا المسند .. وقال لنا ان هذا الكتاب جمعته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفا .. » .

بل ويقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل .. « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب : ذاكرته . فأخذت عليه الأبواب ! ! !

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفا من الأحاديث !

فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها ، يغربلها وينخلها ، حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صح عنده سبعة أحاديث متواترة .. ! أو كما قال ابن خلدون : « ان أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا أو نحوها » . ! ! !

والصحيح أن أبا حنيفة انفراد بمائتى حديث وخمسة عشر حديثا غير ما اشترك فى اخراجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى فيه فى الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمى مسندا له وقع فى ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك — وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الضخم من الأحاديث — كانت قواعد أبي حنيفة قبله لا يحس أثرها القارىء بقدر ما أحسه الشهود ، أى المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصابين وهم الرواة . لقد زلزلت دولة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية ، المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة من العراق ، حتى جاء الشافعى يرد إليها مكائنها بجذاله العبقري فى بغداد والحجاز وفى الفسطاط وهياً لذلك الصاحبان نفسيهما ، بعد اذ مات الشيخ فى بغداد وتبعهما الشافعى بأسلوبه القوى فاعتزت به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الاسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه ، فأدخل فيه الاجتهاد ، وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمبادرة الى تدوينه ، فنقل الى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسلمين الأولين وسقط فى هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له فى اثر واقعة اليمامة وان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس . وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه وانى لأرى أن تجمع القرآن .

ولم يزل يراجع حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى عمر ، فجمعت الصحف ثم صارت « المصحف الامام » فى خلافة عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة فى الأقطار فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام .

أما السنة فلم تجمع ، وان كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه .. فنهتنى قريش فقالوا : انك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا . فأمسكت عن

الكتاب فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني الا حق » . وصحيفة عبد الله هذه هي المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال « انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافا . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى اذا ولى عمرهم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوما فقال للناس اني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأي في جمع الكتاب العزيز .

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول الا مقلين على ما أسلفنا من بيان ، ولما بعث عمر بعثه الأول الى الكوفة قال للمبعوثين (ان أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم برواية الأحاديث وأنا شريككم) .

وقديما كان من شرائع أسبرطة ألا تدون القوانين الا في القلوب وأن يتمرس بها في حياتهم وتدرّب الناشئة عليها في أيامها الأولى ، لتكون الأئدة وعاءها لا النصوص . فمنع « ليكرج » تدوين الشرائع وكانت فلسفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به من فلسفته في القيود والحدود حيث قال « ليست بغير سور هذه المدينة التي لا سور لها اذا كانت تحميها قلوب الشجعان » وما تزال أمم كانجلترا دستورها غير مكتوب ، تقوم على حياطته مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل في سبيله . وكانت حضارة الصدر الأول من الاسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس في التدوين وقلة حاجتهم اليه ، وقال القائل ان اثبات السنن بعد جمعها ليس أصلح منه قبل ذلك ..

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهري وأبى بكر محمد بن عمرو .

كانت كل الأشياء تلح على الأمة للتدوين سواء فى الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاجة الأمة الحاحا حاجة فقهاء الى التسجيل حتى لا ينهار بين أيدي الشيع المتخاذلة ، وحتى يتمكن الكافة منها بتلك الوسيلة التى لا رسول مثلها بين الأجيال نغنى بها الكتابة والغذاء الفكرى لا يقدم للعقل البشرى — بحق — الا فى وعاء من الورق : فى كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعيد المنال : حتى أن الدولة فى عهد المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نقادها ، وفى ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وإن لم يعط عن كل طومار الا دانقا (١/٦ درهم) وكان الطومار فى ذاك الوقت بدرهم ، وفى الغداة عدل عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهذه العلة كان الفرس يكتبون فى الجلود والرق تخلصا من الحاجة الى ورق لا يصنعونه فى بلادهم .

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرف كاتبه فى القراطاس .

وأول من كتب فى الطوامير الخليفة الوليد بن عبد الملك . وفى خاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز الى عامل بعث اليه يطلب قراطيس « دقق القلم وأقلل كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب فى الدواوين يثبت فى صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ — ١٣٦) أمر بإثباته فى دفاتر .

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبى حنيفة فى عهد المنصور ، وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون فى الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ فى حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون فى كتبه فى حياته ، ولم

يتأكد لنا التدوين الفقهي عند غيره من فقهاء الجمهور الاسلامي الا بعد أن كان أبو حنيفة قد أبلغ رسالته في الكوفة وفي مكة والمدينة وفي كل مكان ، وسجلها تلاميذه في كتبهم ، ثم تحرك دولا ب العلم .

واستخدمت أداة التدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعدت الوراقة على التدوين وأخذنا نسمع أن العلماء (أصحاب المحابر) — وبدأ التاريخ بتسجيل فضل أبي حنيفة إذا صح ما قيل فربط اسمه بالقلم والدواة .

فمن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبي حنيفة » ؟.

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين الا حمادا ، وان التاريخ ليذكر نحو الثلاثين من العلماء كنوا بهذه الكنية بعده كالايقاني والدينون صاحب كتاب البنات ، والبخاري ، والفارسي الملجمي (من فقهاء الشافعية) والمغربى (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم ان حنيفة احدى القبائل التي عرض الرسول نفسه عليها ، فأبو حنيفة ليست من جراء أبوة لفتاة ، ولذلك قال البعض ان سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل الى الدين قال تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وقال جل شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفا) ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام (بعث بالحنيفية السمحة) .

ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلا من أبي حنيفة واذا أنت الحنيف في شأن من كنوا بكنيته تشبها به فلماذا أنت كنيته هو ؟

ولهذا تنتقل الى قول آخر قاله (الكافيجي) ، وأورده ابن حجر وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق ...

وسواء أصح القول أم لم يصح فانه يصل بيننا وبين عقيدة ثبتت في التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتباط مذهبه بالتدوين والتحرير .

وهذه هي اليد الكبرى لأبي حنيفة على الاسلام فاذا كان لأبي بكر وعمر الفضل في تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل

التفكير فى تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد ، فأن أبى حنيفة فضل تدوين الفقه الاسلامى ، وتدرسه بابا بابا ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدريسها ، فدونت فى حياته وتضخمت بعد وفاته ، فخلقت البحوث الضافية التى شغلت بها المدرسة ثلاثين عاما أو تزيد ، وتلقاها الصاحبان وتلاميذها وخلفاؤهم ، ثم تسلمها الشافعى وتلاميذه ، ومالك وتلاميذه وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح الممرد الذى يقف الرأى ازاءه مشدوها تروعه ضخامته قدر ما تبهره متاقته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، ان ذلك كان خاصا بالتفسير والسنة ، وكان فيما يتعلق بالأحاديث شخصا لا يقصد به نفع الجمهور كصحيفة ابن عمرو المسماة بالصادقة أو صحف الزهرى .

ولئن قال بعض الفقهاء بأن تدوين السنن كان فى سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حددها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! انها جميعا تواريخ لاحقة لرياسة أبى حنيفة لحلقة الكوفة ببضعة وعشرين عاما .

ولقد يكون حقا ما قيل من أن على بن أبى طالب كان يجمع فى قرابة سيفه بعض أحكام الفقه ، وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب لكن التدوين والتأليف للجمهور الاسلامى على نطاق شامل . لم يبدأ الا على يد أبى حنيفة . قيل ان مالكا جمع الموطأ فى ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوى عرضا وشرحا ، وفروضا وحلولا وأصولا وتفاريع وأسئلة واجابات . ثم ان مالكا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة فى رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاما من النجاة والصدارة فى حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبو حنيفة فى حلقة حماد تلازمه كنيته التى تحدثنا عنها .

قالوا انه لما استقامت الأمور لأبى جعفر خرج حاجا الى مكة سنة ١٤٨ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله انى رأيت أنى

أجالسك فى هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك . وأعهد الى أهل الأمصار يوفدون اليك وقد هم . لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق . فقال مالك « يا أمير المؤمنين ان أهل العراق قد قالوا قولاً تعدوا فيه طورهم ... فان رأى أمير المؤمنين اقرارهم على حالهم فليفعل ... فأعفى ... فأعفاه » .

وذكروا أن مالكا حج فى سنة لاحقة فقال له أبو جعفر : يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتباً ... واقصد الى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس ان شاء الله على علمك وكتبك ... فقال مالك : أصلح الله الأمير : ان أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف .. فتعجل بذلك وضعها فسيأتيك ابنى المهدي العام القابل ان شاء الله الى المدينة يسمعها منك » وذكروا أن مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه قدم عليه المهدي فأتاه بكتب الموطأ فأمر المهدي باتساعها وأمر له بأربعة آلاف دينار ... ولابنه بألف .

لم يكن مالك يجب الكتابة فليل له : ماذا نصنع ؟ قال : تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون الى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهى ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد اذ قيل له انهم يكتبون ما يسمعون منه فقال : « انا الله وانا اليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا ! »

والذى روى عن أبى جعفر فى تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أصح تكليف هذا له أو ذلك ، فانما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أى بعد أن استأثر ثرى الكوفة بعظام أبى حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذى شرحنا . انما تنتسب النهضة الرائعة فى التدوين الى أبى حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ، الذين أقبلوا على التدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ، بالاملاء أو بالكتابة ، فى مجالس الافتاء أو فى مقاعد

الدرس حتى لتجد فى خاتمة القرن الرابع أو فاتحة القرن الخامس مجلسا للطبيب الصعلوكى يضع فيه الشيخ فى وقت املائه أكثر من خمسمائة محبرة ... !

لم يضع الصحابة والتابعون فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كتباً مرتبة ، وإنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صناديق علمهم ، وجاء أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئا بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات ، ثم ختم بكتب المواريث لأنها آخر أحوال الناس وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال : وضع أبو حنيفة ستين ألف مسألة فى الاسلام . وقيل ثلاثة وثمانين ألفا منها ثمانية وثلاثون ألف أصل فى العبادات وخمسة وأربعون ألف أصل فى المعاملات وقيل بل ... خمسمائة ألف ..

وروا أن مالكا كتب الى خالد بن مخلد القطراني يسأله أن يحمل اليه كتب أبى حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوزاعى مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبى حنيفة كما سئرى بعد . وصنعه الشافعى عن طريق محمد بن الحسين .

وصنعه سفيان الثورى فرأى الرأى تحت رأسه كتابا استأذنه فى قراءته فاذا هو كتاب أبى حنيفة فى الرهن فسأله : أنتظر فى كتبه ؟ قال : وددت أنها كلها مجمعة عندى .

صنع هؤلاء الأئمة ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعا .

الباب التاسع

إمام أهل الرأي

« علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه »

« أبو حنيفة »

كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها الى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كما قال .

أو كما قال في وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء بمرور « ان أبواب القضاء لا يدركها الا العالم النحرير ... فاذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل الى الكتاب والسنة والاجماع ، فان وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فان لم تجده ظاهراً فرده الى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان الى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذي سال منه فقه أبى حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى في تناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعبادات .

لم يكن من ذلك بد ، فالناس في بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون الى معالم تعين حدوده وأدوات تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه ، ولا غنى في تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذي له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية . فاما أن يترك الناس مع أهوائهم في المتاهات ، واما أن يقفوا تلقاءها جامدين ، فلا يكون بد من التوقف المؤدى الى تعطيل التكاليف أو الى مالا يطاق ، واما أن يؤذن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفي بلد متحضر كالعراق ، حيث تجمعت قوى الاسلام لتتطرق في مضمار الحضارة ، كانت تقع أمور ذات بال تدفع الفقيه الى الابتكار فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التي تحدث للناس .

والقياس في كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وأول أبواب الاستنباط وأعلاها هو القياس .

وفى السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد الى الرسول رجل ينكر ولدا له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام « هل لك ابل ؟ » قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أورك ؟ قال : نعم . قال : فمن أين ؟ قال الرجل : لعله نزع عرق . قال : وهذا لعله نزع عرق . » . قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرنا ويقول له العلم الآن . واجتهد النبي اجتهادات صححها القرآن وفى بعض ذلك قوله سبحانه (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك) ولما أذن للمنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

بل ان من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم كيوم نزوله فى بدر دون الماء فقليل له بوحى أم برأى . أما اجتهادات الصحابة ، فكانت كالعلامات التى تشير الى ما تحت الثرى من كنوز ، أمر النبي صحبه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها فى الطريق ، قائلين ان النبي أراد السرعة ، وأبى آخرون الا أن يصلوها فى بنى قريظة فصلوا هنالك ليلا - وهؤلاء هم سلف أهل الظاهر - الذين يتمسكون بظاهر النصوص أما الأولون فهم الآباء الفكريون لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان على بن أبى طالب باليمن اختصم اليه ثلاثة نفر فى غلام وقعوا على أمه فى طهر واحد فقال لاثنتين منهم : طيبا بالولد لهذا . قالوا : لا . قال لاثنتين فيهما الثالث : طيبا بالولد لهذا قالوا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون انى مقرر بينكم . فقرر بينهم وجعل الولد للقارع وجعل عليه للرجلين ثلثى الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبي فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على . واجتهد صحابيان خرجا فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبي وقال للذى لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين .

ولما قتل خالد بن الوليد قوما قالوا : صباأنا . قال النبي : (اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد) ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتخرجون دون القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثليهم بل أشد حرجا ... كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى ليسمى سعيد بن المسيب الجريء، فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال « انما يفتى الناس أحد ثلاثة : رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بدا أو أحقق متكلف » فقال ابن سيرين . فأنا لست أحد هذين فأرجو أن لا أكون أحقق متكلفا .

حتى اذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشتى أسمائها (القياس . أو الاستنتاج . أو الاجتهاد . أو الرأي) وقلبها فى كفه كعصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غرارهم وجرى المجتهدون فى غباره ، اللهم الا أشيع داود الأصفهاني (الظاهري) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وان فى عمومات النصوص كفاية للأمة ، وقد درس مذهبهم .

واذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الاسلامى تربو وتنمو حتى ترفع الفقه الاسلامى الى مستواه الرفيع العالى بين مستويات الشرائع المقارنة تطلع اليه فى قممه الشوامخ . ذلك الفضل من الله أتاه أبا حنيفة ، وهو الذى جعل الشافعى يهتف بذكره قائلا (من أراد أن يعرف الفقه فيلزم أبا حنيفة وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه) .

وانتقلت هذه العصا السحرية الى اللغة والنحو كما يذيع الخير ، ويشيع النور ، وتنتقل الصحة — والصحة تعدى كما يعدى المرض — فاذا بالقياس فى البصرة والكوفة يهب اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات .. فلو كنت من أهل البوادي فى ذلك الزمان ممن يعولون فى اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون فى الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت الى

مصر أو الى الشام بله العراق — بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة في اللغة آلة القياس — لظننت أن العربية التي تسميها ليست هي العربية التي نعهدا .

كان أبو حنيفة منطقيا ، والمنطق جوهرية القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلماذا لا يتعرف المجتهد باستقراء الأحكام الشرعية وجوه المصلحة في النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التي يقوم الشرع عليها ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لاتحاد علة الحكم في الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل وعلى ذلك ففى كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد حيث لا نص .

واذن فليعمل المفكرون فكرهم في تعرف العلل وإضافة الأحكام إليها وضبط النتائج ، وتقريع الفروع في فهم واحاطة لخلق الأحكام وابتكار الآراء ، وفي ذلك تتفاوت الملكيات ، وتتميز الكفايات من الكفايات ، تتميز الزجاج من البللور وتميز البللور من الماس ، ذلك يخترقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضا من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة الى معارك المتكلمين في صدر شبابه فخلف هذا النزال أثره في ملكة الجدل ، وربط حاضره بماضيه في حياة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهي سواء في الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعا تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة الا غلاما طرى الاهاب عندما صحب الشعبى فى سفينة فسمع الشعبى يقول : (لا نذر فى معصية ولا كفارة فيه) ، فاستوى الفتى الرشيق الفهم ، مناضلا راشق السهم ، يقول : (بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل فى الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال « وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا » وقد أوجب فيه الكفارة...) فلم يحر زعيم المحدثين جوابا سوى أن قال : أقياس أنت ؟ .

والظهار لغة هو أن يظهر الرجل من امرأته اذ قال لها ، أنت على كظهر أمى ، وشرعا هو تشبيه المسلم زوجته أو جزءا منها بمحرم عليه ، مؤبدا . ولو امتد الأجل بالشعبى أعواما لجاءته الأيام بالجواب .

وانه لفى المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يديرونها بينهم اذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخلق الشكس فقال : ما هذه المقاييسات ؟ دعوها فأول من قاس ابليس ، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسلب الحجة ، بل أقبل على الفتى يكتبه بأى الكتاب ، فذلك أدنى ألا يرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام فى غير موضعه ، ابليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » . وقال تبارك وتعالى « فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » . وهذا القياس الذى نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأننا نرده الى أصله أمر الله تعالى فى كتابه ، أو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضا فى ردنا كتاب الله و سنة رسوله والاجماع ، فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى ، فابليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردده فكيف يستويان ؟ .

أنت الفتى هذه الحجج بغتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، نور الله قلبك كما نورت قلبى ...

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الامام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الامام فقصده اليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال : لا يمكنى مناظرة

الجميع فولوا أعلمكم ، فاختاروا لجذاله أعلمهم ، قال : وهل اذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا : بلى . قال : ان ناظرته لزمتمكم الحجة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا فأقروا بالالزام .

كان يبحث عن علل النصوص فيجربى الحكم الشرعى على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ ، فاذا سمع حديث النبى عن الزكاة أن فى كل أربعين شاة شاة — رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . واذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير . قال : انما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

واذا فسر رواية أبى هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصرة بعد احتلابها ورد صاع من تمر (وهى الشاة التى تربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشتري بها غزارة اللبن) فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع . ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف فى الشريعة هو أن يرد المثل ان كان التالف من ذوات الأمثال أو القيمة ان كان من ذوات القيمة . أما المدرسة الأخرى فتري أنه لا يجزىء عن شىء من ذلك ثمنه أو مثله .

قالوا انه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك فأبو حنيفة هو القائل : (.. وكل شىء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمننا به وشهدنا بأنه كذلك ، ونشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشىء يخالف أمر الله ، ولم يقل غير ما قاله الله تعالى وما كان من المتكلفين . قال تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله .. » وان كتب أبى حنيفة للمأوى بترك القياس الى الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا الى كلام المخالفين فان أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا فى مسألة الا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عليها .

والشافعى نفسه يقول : « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به ... »
انما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت السنة أو عدم ثبوت .
قال ابن خلدون : (واعلم أيضا أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الاكثار من هذه الصناعة . وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة .. وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها ...) .

وقديما قدم على ابن أبي طالب القياس على خبر الواحد .
قال أبو يوسف : (ما خالفت أبا حنيفة في شيء فتدبرته الا رأيت مذهبه الذي ذهب اليه أنجي في الآخرة وكنت ربما ملت الى الحديث وكان هو أبصر بالحديث مني ..)

وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعتزت مدرسة الكوفة وأستاذها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحناطين بمكة ، فسأله الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابه :
لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعي : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة ولا يعود الى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن ابراهيم ؟

فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهري .

وكان ابراهيم أفقه من سالم .

وان كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبه ، فالأسود له فضل كثير ،

وعبد الله هو عبد الله !

أما عن سلسلة الأوزاعي : فالزهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب - وكان عبد الله كثير الاتباع للآثار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلي ، ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تيبس ، لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذ حماد وابراهيم هو ابراهيم النخعي ، وعلقمة هو علقمة النخعي الذي قال عنه ابن مسعود انه ما قرأ شيئاً أو علمه الا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود ابن يزيد بن أخى علقمة وتلميذ معاذ وابن مسعود وأما عبد الله فهو عبد الله ابن مسعود العظيم .

ولقد كان الأوزاعي يجادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة . قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعي فرأيتته ببيروت فقال لي : يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت الى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالثة وهو مؤذن مسجدهم وامامهم والكتاب في يدي فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته فنظر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعدما أذن حتى قرأ قدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب في كفه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب ، حتى أتى عليها ثم قال لي : يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لقيتته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه . قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه .. »

فلما اجتمعوا بمكة جاراها في تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك ولما افترقا قال الأوزاعي لابن المبارك : « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر . الزم الرجل فانه بخلاف ما بلغني عنه . »

وكان كشف الأمور للامام « الأوزاعي » كان يكشفها للامام « الثوري » جاءه رجل يقيمه الهم ويقعده قال: حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل

أن تكلمنى . قالت : والعناق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمنى - فكيف أصنع ؟
قال : اذهب فكلمها ولا حنث عليكما ، فذهب الرجل الى « سفيان الثورى »
فهوول سفيان الى ابى حنيفة يقول : « أتبيح الفروج » ! قال أبو حنيفة :
« هو كذا : انها لما قالت له وعلى العناق الخ .. شافهته بالكلام فانحلت
يمينه فاذا كلمها لم يقع الطلاق » .

قال الثورى : انك لتكشف ما كنا عنه غافلين .
حقا : كم كان صحيحا قول الشافعى : (قول أبى حنيفة أعظم من أن
يدفع بالهوينى . وقول عبد الله بن المبارك : رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفة
صغارا وما رأيت أحدا حاور أبا حنيفة الا رحمته) .
بل قوله : هاتوا لى مثله والا فدعونا ولا تعذبونا .

ويتصل بمذهب أبى حنيفة فى القياس مذهبه فى الاستحسان وهو
الأخذ بمصلحة جزئية فى مقابل دليل كلى يلجأ اليه اذا كانت نتائج القياس
لا تستساغ . بأن كان طرد القياس يؤدي الى غلو فى الحكم ومبالغة فيه
فيعدل عنه فى بعض المواضع ويفتى المجتهد بما يحسن وقعه فى النفس فى
تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذى تحسن به نفسه حكما غير ما ينتجه
القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : (استفت قلبك وان أفتاك المفتون ...)
ولقد نعوأ على أبى حنيفة تركه القياس الى الاستحسان ، قولا بأنه
خروج منه عن قاعدته الكبرى وهى القياس ، لكن الذين آخذوه على
الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

بل كيف يتقف المجتهدون دون الفتوى اذا ساء القياس بأن قبحت
النتيجة . رروا عن مالك أنه قال : (تسعة أعشار العلم الاستحسان) .
ان القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكلها احساس . والمفكر الذى
كانه أبو حنيفة ليس هو الذى تستعبده أدواته . ومن يصنع شيئا لا يسجد
له ، والرجل الذى يطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن
ليتنجنبه فى مقولاته .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى اذا قال استحسن لم يلحقه واحد منهم لكثرة ما يورد في الاستحسان فيدعونه جميعا ويسلمون له . وقال ابن شبرمة : ان كان لا يجوز لأحد أن يتكلم في دين الله برأيه فأبو حنيفة اذا قال استحسن .

حضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنته من أخوين فخرج الولي وهو يقول : أصبنا مصيبة عظيمة ، غلطنا فزفت الى كل واحد غير امرأته وأصابها . قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه ... فقال : أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل الى زوجها . فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة : على بالغلامين . فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التي زفت اليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التي عند أخيك ؟ قال : هي فلانة ، قال : قل هي طالق مني . ثم زوج كلا المرأة التي مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلومونني على حبه ...! وسفيان ساكت لا يقول شيئا .

وكلا الحكمين حق فحكم على حكم الوطأ بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح ...

وحكم أبي حنيفة حكم بدرأ ما يترتب من القسوة بعد اذ أفضت كل امرأة الى رجل بما أفضت من محاسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره . فكان حكم أبي حنيفة الهاما موقفا ، لأن لصاحب عدة الوطء بشبهة أن يعقد بالموطوء فيها ، وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل مسعرا يقبله .

قال أبو حنيفة يوما لتلميذه داود الطائي عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها . قال داود : وهل بقي شيء ؟ قال الامام : العمل .

فلننقل عنه هذا التصوير للعلم الى الآلة التى صيرت علمه مذهباً فى العالمين وهى أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآتين فاختلطا فى يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى ، وجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما (الرأى) أو كما قال الشافعى أصبحا اسمين لمعنى واحد ، ذلك بأن الاجتهاد لا يكون الا بدلائل والدلائل هى القياس ، واذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب فى كل الآلات والمحركات ، واذا بحلقات الفقه تضحى كمعامل الانتاج الكبير حتى تكاد الآذان تسمع وقع العجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثنى عشر ، واذا بهذا الروح الخالق يهب الحياة للانتاج الهائل الذى خلفه لنا القرنان الثانى والثالث وما زال يهب الفقه حياته كلها الى الآن .

حقاً ان هاتين الآتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبى والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا لكن الرسول اذ يشرع هو صاحب الشريعة واجتهادات ابن الخطاب عمرىات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر وعلى . وما عداها من اجتهادات الصحابة والخلفاء لم تك الا ومضات خاطفة لمعت فى المناسبات ، أما الفتى الخزاز كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أميراً للمؤمنين ولا والياً ولا قاضياً ، لكنه جعل هذه الومضات العابرة شمسا تغمر الأكوان كلها بالنور واتخذ منها تمثالا شامخا يربط كل ما فى الوجود الى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث وفيما قد لا يحدث من الأمور .

وأية جسارة كانت هذه الجسارة !

لقد كان أبو بكر يقول : (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن مالا أعلم) وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب وتفسير آياته .

سئل أبى بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شىء فقال : أكان هذا ؟ قال السائل : لا . قال : فأجمننا حتى يكون فاذا كان اجتهدنا لك رأياً .

وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان اذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فان قيل له وقعت أفتى فيها . وان قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون . وكان عبد الله بن عمر لا يكتر من الفتوى تورعا منه ، رغم أنه تصدى لافتاء الناس سنتين عاما وأن أهل الشام مالوا الى توليته الخلافة فزهد فيها . كان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن فى الافتراض نجامة أو رجما بالغيب أو تحديا للمستقبل ، مخافة أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا دون المام تام بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع فى هذا شيئا . قال السائل : فأخبرنى أصلحك الله برأيك . قال : لا . ثم أعاد عليه . فقال : أرضى برأيك . فقال سالم : انى لعلى ان أخبرتك برأىي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا فلا أجذك .

قال ابن سيرين أول من قاس إبليس . وما عبدوا الشمس والقمر الا بالمقاييس . وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهري بشيء من رأى فقبض وجهه كالكاره ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال : اذا جئتنى فأنتى بهذا .

وكان الشعبى يقول : (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح والرأى) .

ويقول : احفظ عني ثلاثا لها بيان اذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك رأيت (أى لا تفترض) فان الله تعالى قال فى كتابة (أرأيت من اتخذ الهه هواه ...) واذا سئلت عن مسألة فلا تنفس شيئا بشيء فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، واذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أبى حنيفة ، وكان الأمر كذلك من بعد ظهوره . روى أسد ابن الفرات بعد اذ قدم الى المدينة على مالك (وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلوننى أسأله فاذا أجاب يقولون قل له : فاذا كان كذا فضاق على يوما فقال لى : هذه سليسلة بنت سليسلة ، ان أردت هذا فعليك بالعراق) .

وفى كلمة مختصرة كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأى الا اضطرارا
مكرهين عليه اكراها ، ولا يستخرجون أحكاما لمسائل لم تقع بل لا يفتون الا
فيما يقع .

لكن أبا حنيفة اذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم
يقع ، لا يرق مما قدمت يداه . بل يفرضها على الفقهاء فرضا ، ويهيب بالكافة
أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف الى جانبها جبارا يملأ العين
والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين عقودا ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى
 للهجرة . معلنا للملا أنها أدواته التى يخلق بها مالا يعلمون ، وأن العقل
والنقل . أو الفكر والنص ، هما الأساس الذى تبنى عليه أصول الفقه
الاسلامى وفروعه ، حتى اذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بما سجلوا
عليه وكافح فى سبيله .

ذلك الرجل اذا لم يك مخترع هذه الأداة فانه كاشفها الذى جمع القطر
فصيره من فيض عقله بحارا ، والكشوف العلمية لم تخترع المكتشفات
اختراعا ، وانما بصرت بها بين المجاهيل . والرسالات الفكرية كالكشفوف
تهدى الى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والاعداد والارتياح .

لم تكن الكهرباء ابتداعا ، ولا الراديو ، ولا البسترة (التعقيم على
مُرِيقَة باستور) ولا أمثالها وانما هى كشفوف هدت اليها الصدفة حينما
والكدح والضنى أحيانا ... وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة
الكوفة الى العالم الفقهى ، أثرا لجهد ناصب دام أربعين عاما فى عهد أبى
حنيفة ، بعد أن ظل قرنا كاملا من الزمان جنينا يضطرب فى بطون التاريخ
الاسلامى حتى قدمته يد أبى حنيفة الى الوجود .

ترى ماذا كان مصير الشريعة الاسلامية اذ هى وقفت فى حدود ظاهر
النصوص أو اكتفت بمدلولاتها المباشرة . سواء فى المائتى آية أو العدد
القليل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها أو بذلك الاجتهاد الفردى
أو القياس العرضى ! ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الاسلامية اذا لم
تستند الى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة
التي يهدف الى نشرها هذا الدين ?? ماذا كانت صانعة هذه الآلاف من الملايين

وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائسة المتجددة ، وهذا العالم المتباين المتغاير ، وهذه القرون التى يحمل كل منها طوابعه ، وهذه البقاع والأجناس والحضارات ، من أسيوية الى أندلسية ومغربية وهندية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى الى حضارة القرون الوسطى الى حضارة الآلات .

انما يرجع الفضل فى سداد الشريعة الاسلامية لمطالب الحضارة الاسلامية الى هذا المولد ، الدائم التوليد ، مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة يتضاعف نباتها دواليك حتى يكشف القمران ، أو كالمتواليات الهندسية التى تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائة مليون فى ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصلية التى تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات .

لكنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : (من يطلب الفقه ولا ينفقه مثل الصيدلاتى يجمع الأدوية ولا يدرى لأى داء هى كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجىء الفقيه) والذى يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون فى النصوص ، فأولاء يلتزمون النصوص كأولئك يختزنون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينتفعون.عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعة ، مركبات نافعة ، تتلاءم فى كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء ، !ما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفى الداء كما يشاء خالصا أو ممزوجا أو متفاعلا .

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية . فلم يبق فى الأمة مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الأسلامى محجورا عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة (يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه) .

فيا للفكاهة التى زعموا عن الشافعى تعويضا بكتب أبى حنيفة وتلاميذه عندما سبق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حيث قال (.. قدمنا على

هرون ... ومعى خمسون دينارا ... ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقه فأنفقت
الخمسين دينارا على كتبهم، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان
عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان اذا قيل له : عندك
فرشنان ! قال نعم . فان قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم : فان قيل له : عندك
خيزى ! قال : نعم ، فاذا قيل له أرنى ؟ ولزق رءوس كثيرة ، فيخرج له من
تلك الرءوس ! وانما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة انما
يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وانما هم مخالفون له ...)

بلى هو دهن واحد حقا كما نسبوا القول الى فتى قريش العظيم ، لكنه
أصول الشرع الاسلامى وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخرج الزئبق
والخيزى والفرشنان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج
هو منه كل شىء بعد قليل من الزمن ، واذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا
الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المثابين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلا يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذامه . فان ثلاثة
أرباع العلم مسلمة له بالاجماع والربع الرابع لا يسلمه لهم ، قال : وكيف ؟
قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم
ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ فاذا جعلنا صوابه بخطئه
صار له نصف العلم الباقي ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حسن السؤال نصف العلم)
وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فقال مقالة ابن سريج .

وفى الحق ان الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل
التي تحتاج الى حلول ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف
الاستعراض وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن
البعض قوة السؤال وضعف الجواب ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال
وللأجوبة رجال .

قيل عن الحسن بن زياد انه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على
قدر سؤاله .

أما أبو يوسف فقد قيل انه أحسن الناس سؤالا وجوابا . ولما مدح الشافعي محمد بن الحسن أثنى عليه « لبيانه وثبته في السؤال والجواب والاستماع » أما محمد فقال عن الشافعي (ان كان أحد يخالفنا وثبت له فالشافعي رضى الله عنه) قيل : ولم ؟ قال « لتأنيبه وثبته في السؤال والاستماع » .

ولكل من الضعف في السؤال أو في الجواب أسباب لسنا بسبيل شرحها ، فبحسبنا التنبيه الى أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الاجابات الضافية ، فكان لها فيما أصابت فضل السؤال وفضل الجواب وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد . وكان لها فوق هذه الأفضال جميعا فضل السبق في التدوين والترتيب والتبويب .

أنجب الفقه الاسلامي هذا الانجاب ، وتبارت في مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار اذ أوفى على التمام ، حتى اذ مات الطبرى سنة ٣١٠ هـ بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس من بعد وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجلج البغيض : أن قد أقفل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقليد ، وسرت عدوا كالوباء بتخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الجمود : ومسخت روحه وأصبحت قضاياه كالألغاز .



ستذكر الانسانية هذه اليد لأبى حنيفة عليها وعلى الاسلام فتسلكه في سلك المناضلين المتألهين في ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحر مزاياهم . وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم — وهما من أصل واحد — لأن الماس يتحمل الضغط العالي ولا يفنيه الحريق وكلما صبت عليه النار ردها أنوارا ، أما الفحم فهو الفحم ، ظلمات بعضها فوق بعض . لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود . سيذكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الامام الأعظم ، فلو لم ينغض اليه الحمقى رؤوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله فيقدر ما

يوزن المرء في ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياء ولا عجب اذا كان الرجل صاحب الرأي هو الرجل صاحب الخصوم .

والعمریات الهائلة التي خلد بها مجد الاسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء رأوا في وجهاته التشريعية واجتهاداته بعدا عما ذهبوا اليه من التمسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر الذي كان في يده من كنوز الامبراطورية الاسلامية ما ان مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ولكنه لم يك يملك الا قميصه ودموعه وتقواه ...

وقف عليه اعرابي فقال : يا عمر الخير جزيت الجنة : اكس بناتي وأمنه .

قال عمر : فان لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الاعرابي : والله عنهن لتسألنه : اما الى نار واما الى جنة .

فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره .

ثم قال : والله ما أملك غيره .

ولم تمنع عن عمر المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقريا يفري فريه ، أى يصنع صنيعه ، وأن (عمر معي . والحق مع عمر حيثما كان) و (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) .

ولم يك أبو حنيفة عاطلا من الفضل العمري وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ، زهادة وعبادة ، وقوة ايمان وسداد رأي ، وزعامة فكر ، وهى جميعا أسباب خصومه لأنها أسباب كرامة !

وسينسى الناس ما سال في هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم فأبو حنيفة الامام الأعظم لأهل السنة في علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية ...! فلا يجر المجرور ، وان كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الميث بن سعد : « بلغنى أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت اليه قاصدا فائقته بمكة فسألته عن مسائل كثيرة فى أبواب متفرقة وسألته عن

مسائل الجنايات وعن قتل الخطأ وشبه العمد فقال لى فى بعض ما أجابنى ،
(وإن ضربه بأبو قبيس) — جبل أبى قبيس — وفى رواية أخرى بأباقيس ،
فقضينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغنى بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت اليه
قاصدا فأردت أن آخذ عليه حرفا واحدا ما قدرت عليا ، فما أدرى أندرت
منه تلك الكلمة أو تكلم بحجة . »

فيا لأدب الليث ويا لحماقة الخصوم ! انها لم تندر من أبى حنيفة وانما
تكلم بحجة . فقد يكون تكلم عن أبى قبيس باعتباره علما والعلم لا يغير .
وابدال الواو فى « أبو قبيس » ياء عند الجر أو ألفا عند النصب واجب
يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه امام الأمة الأعظم ، المفسر الكاتب ، المتكلم
الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحد فى اللغة ، وهذه أمثالها فى العقيدة .

فأبو حنيفة مرجىء اذ يقول ان العمل ليس ركنا للايمان .

وأبو حنيفة زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فتزندق مرة أخرى ،

ثم تاب . وانه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهوديا !

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهيميا !

فلندع قولهم انه كان زنديقا أو كافرا أو يهوديا .

أما أنه كان من أشياع جهم بن صفوان الذى كان يقول ان الانسان
مسير لا مخير وينفى صفات الذات الالهية . ولا يشترط للايمان النطق به ،
فحسبه تكذيبا أن جهما قصد اليه يجادله فأجابه بقوله (الكلام معك عار
والخوض فيما أنت فيه نار .) ثم طفق يقرع حججه واحدة اثر واحدة
حتى فصل عنه جهم وهو يقول « لقد أوقعت فى الخلد شيئا فسأرجع اليك » .
وكيف يكون جهميا من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمي لا تجوز .

أما أن أبا حنيفة مرجىء ، فلعلها من تهمة الخوارج أو المعتزلة الذين
لا يقولون بالارجاء فليس ثمة ريب فى أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى

الذى شرحناه من قبل لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه فى منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وانما يرون له التوبة والمغفرة ويتركون حسابه الى الله .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهباً فان كان فيه رضاك فذاك والا فعطنى . ان الامام كان لا يخرج أحداً من الايمان بذنب قال أصاب . قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس . قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ . قال : بلغنى أنه كان يقول ايمانى كايمان جبريل . قلت : بلغك الباطل كان يقول ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام الى النبى صلى عليه وسلم كما بعثه الى من قبله فأمره أن يدعو الناس الى الايمان . فالايما ن ايمان واحد لا ايما نان أو ثلاثة ، ولا ايمان هذا واقاراه غير ايمان ذا واقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئاً . قلت : وكان ينكر الشك فى الايمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون اننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال : من يقول هذا . »

ذلك قول مالك فى قول أبى حنيفة .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلاً هو المثل العالى همة فى الدين ، يحيا حياة طويلة ليست فى عداد الزمان ، الا سجدة مخصصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم الا النفقة ، ويسمعونه بأذانهم فى المسجد ، وفى كل مكان ، يجاهد بقلبه ولسانه ويبيده حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وهم يقرأون ويستمعون الى كتبه « العالم والمتعلم » و « الفقه الأكبر » وكتابه فى الأرجاء الى عالم البصرة عثمان البتى والى القواعد الواردة فى الوصية المعزوة اليه وفيها جميعا الحجج الباهرة على أهل الالحاد والبدع . وهم يعرفون افحامه لأهل الالحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينة ، ولخالقه بالسفان حيث يسائل المشككين . (... ما تقولون فى رجل يقول لكم ان سفينة مشحونة بالاحمال ، مملوءة بالأمّعة والأثقال قد احتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها .

هل يجوز ذلك فى العقل ؟ فقالوا : لا ، قال : فيا سبحان الله اذا لم يجوز فى العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ..؟)

فلم يبق الا التهمة التقليدية التى وجهت من قبل الى السيد المسيح وهى أن أبا حنيفة يحرض على عدم التعاون مع السلطان ! لكن السلطان ليس أذنأ لهم ، فلا يلف لفهم ، ولا تقع الواقعة . فلم يعد فى جعبة السهام الا أخيها : سهام القذف والكلم القوارص .

فأبو حنيفة من أبناء السبايا ... ومن الدجاجلة ، .. بل انه ليروى عن شريك أنه قال :

(لأن يكون فى حى من الأحياء خمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبى حنيفة) وانه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم منه على الاسلام ... وهو كان جربا يراه الرجل مقبلا نحوه فى المسجد فيقوم قائلا لأصحابه ، قوموا لا يعرنا بجربه ... فيقومون ... وهو لا يثق بنفسه فيحض تلميذه أبا يوسف على الشك فى مقولاته بقوله : لا تروعننى فانى والله لا أدري أممخطيء أنا أم مصيب ! ثم انه أجراً الرجال على الرجال . قالوا ... ان رجلاً جاءه من خراسان يقول : عندى مائة ألف مسألة أريد أن أسألك عنها قال أبو حنيفة : هاتها . وتساءلوا فيما بينهم أسمعتم أجراً من هذا ؟

والجواب أن الجرىء على الحق ليس هذا المجيب وانما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يعرف عنه الا انه امعة من الامعات ، ومع ذلك يزعم أنه يعنى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يبسطها !! ولماذا لم يجىء ذلك اللوذعى بمسألة أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات اعجازه الكبرى ؟.

لقد كان جواب أبى حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات .

ومن قبل أبى حنيفة كان ابن سيرين اذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل أمسكها حتى تسأل عنها أخاك ابليس !

والأغلوطات - كما فسر الأوزاعي نهى النبى عن الأغلوطات - هى
مصعب المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نابى ثعلب فلم يرد عليه
شيئا .

أما أبو حنيفة فلم يسنه السائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن
الكلام كابن أنس لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسفه
الرجل نفسه وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فان قواعد أبى حنيفة وفروعها
تحتوى أكثر من ذلك وأمثاله لمن يشاء

يا لله أصحيح أنه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم من أبى حنيفة على
الاسلام !! أصحيح أن وجود أبى يوسف أو محمد أو داود الطائى أو زفر
وأمثالهم فى حى من الأحياء شر عليه من وجود خمار يبيع فيه بنت الحان !
أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام « ويل لعالم أمر من جاهله »

أم أنه المجد وارتفاع المقام يعنيه محمد بن الحسن اذ يسمع قدح
الخصوم فى أستاذة فيقول :

محسدون وشر الناس منزلة من كان فى الناس يوما غير محسود

أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أن رأوك فضلك الله بما فضلت به النجباء

أو كما قال هو ذات يوم اذ أقبل عليه رجل ، فسأله : من أين أقبلت ؟
قال من عند شريك وكانت بينهما وحشة كما رأيت - فرفع رأسه وقال :

ان يحسدونى فانى غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما بى وما بهمو ومات أكثرنا غيظا بما يجد

لقد كانت قاعدة (أن السلف لا يخالفون) فى قدسيتهما عندما أعمل
فيها معاولة ، ولم يك شاع فى الوسط العلمى أن أحكام المعادلات ليست
تعبدية ، وعزيز على أنفس المتعنتين أن يقبلوا الاتجاه القاضى على ما ألفوه

دون أن يتجمعوا ضده ، أو يصبروا على الجهر والالاحاح والتحدى
بأن رأى انسان من الأناسى يعتبر مصدرا للحكم على حاضريهم وماضيهم
ومستقبلهم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هى التى جعلت على
قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وانما هى الخصومة القديمة
الضاربة بجرانها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم الا تهما تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ
فى كل زمان ومكان ! . شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أديائه ،
تدعى أيا ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشابكة ، لكنها لمسى واحد قد
يسمى فى المشرق بالزندقة . تحويرا لتعبير فارسى يراد به الالحاد ، ويسمى
فى الغرب بالهرطقة Hérésie يراد به - فى الواقع - أعداء الكنيسة
فى الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وان
كانت الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! والا ففيم لا يطيق الناس قيام المجدد الا بعد
أن يزائل صاحبه دنياههم ، فيصبح معنى من المعانى وذكرى فى الزمن !

وكأنما ترسل النفس القوية على الأرض شعاعا تعشى من ضيائه
الأبصار ، فاذا صعدت الى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالثرى .
وفتحوا أعينهم فى أفق أوسع وألمع ! .

هنالك يبايع الأحياء موتاهم ويقيمون التماثيل لمن أخلى مكانه فى
الوجود .. فاذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم
كما يرضون بقضاء الله الذى لا يرد ، وبظواهر الطبيعة التى لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم أبى حنيفة فى
عهد ، ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده ! لقد فقد (ليكرج)
من ألفى عام قبل ذلك احدى عينيه من جراء احدى شرائعه !

انما الجديد فى صدد أبى حنيفة أن الولاة لم يسمعوا ولم يخذعوا ،
على فرط ما استمعوا وما انخدعوا فى حوادث الايقاع بسواه . فلعلها بركة

السنة على امام أهل السنة الأعظم ، فلم تسمّل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش ولا مذابح العقائد ، وحمى التاريخ مدرسة الكوفة وامامها . فلم يقع فيها ما وقع في أثينا وروما وبيزنطة ومديرد وباريس وبغداد وغيرها في الشرق والغرب ، في عهد الحضارة الأولى أو في القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى في العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالاعدام خمسمائة قاض من الجماهير . لانه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطو يهرب خوفاً من تهديد مواطنيه ويموت في مهربه !!

وترى في مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الإصلاح الديني بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاثهام برونو بحجة الهرطقة !

وهناك حوكت القديسة جان دارك وسرفاتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشري !

وهنا تجد المعتصم — بطل عمورية — وأخا المأمون الفقيه — يجلد ابن حنبل بالسياط والجلد صائمان ... ! وابن عبد القدوس ، والبويطي واحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهناك لقي الفكر الانساني من العذاب ما تندى له الجباه ...

لقد سعد هذا الفكر الانساني درجات المشنقة ، وهوت عليه المقصلة ، وشرد ، وجرد ، وحرّم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويملاً الأرجاء بالاشراق .

وكانت غيابة السجن له أولى درجات الخلود .

الباب العاشر

في القضاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع منها وتتباعدها ولا تدن منها فانك تحترق »

(أبو حنيفة)

كانت وظيفة الحكم في الكوفة عملا لا يغبط عليه من وسد الأمر اليه ،
وكان هم الولاة المقيمين المقعد أن يستقضوا عليها أفقه الفقهاء .
فاذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز
العالي ...

ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان فلعللى
بن أبى طالب ، لظفر منه بقوله : « أنت أقضى العرب » . وتولاه لمن جاء
بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله لم ينقطع الا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير
حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى
الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبى » . وما أدراك من الشعبى ! بعثه عبد الملك بن مروان
الى ملك الروم . فلما قفل راجعا سلمه الملك خطابا الى أمير المؤمنين : وقرأ
عبد الملك الخطاب فاذا فيه « عجبا من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا
رسولك !! » قال الشعبى « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسدا ... »
وبلغ ذلك ملك الروم فقال : لله در أبيه ، ما أردت الا هذا .

جاس الشعبى للقضاء نحو من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ ف خلف من
بعده (الأستاذ الأول لأبى يوسف) محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى
سنة ١٤٧ .

وكان طبيعيا أن تشرئب الأعناق الى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ،
بعد أن جلس مجدين ابن مسعود فى الافتاء ، فاتجه اليه يزيد ابن هبيرة عامل
مروان على العراق (١٢٧ — ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات
أيام بنى أمية .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، ودواد بن هند وولى كل
واحد منهم صدرا من عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون
فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ، وجعل له حق انفاذ الأحكام التى
يصدرها القضاة والخراج أيضا وختم أوامر الوالى ، فرفض أبو حنيفة ، وألح

يزيد وأشار أصحاب أبي حنيفة عليه بالقبول فقال: « لو أراد أعدله أبواب
مسجد واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق
رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل في ذلك أبدا .. »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فانه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط ، قيل : ضربوه
مائة سوط وعشرة كل يوم عشرة أسواط فلم يزد العذاب الا ثباتا .

لكن للدولة ما رب أخرى في رضى الأستاذ ، فان لم تفلح في أن تضمه
الى رجال الحكم فلتتمدد اليه بسبب من الأسباب ، وعرض عليه يزيد أن
يسلكه في الطراز - (بيت المال) - لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ،
وأغنى عن الخلفاء فأبى .

وقيل انه ترك الكوفة الى مكة سنة ١٣٠ وبقي الى جوار بيت الله بضع
سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق اقليما ثائرا على ما وصفنا وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر
شعبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم الى الولاة والقضاة .

روى الشعبى عن شريح أن قد جاءت امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها
فقال له : يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة الا مظلومة ! قال يا شعبى ان اخوة
يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون !! .

وكان ذلك أيام لم يألّف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكون في
القرن العشرين ، كضاحك المزن ، دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبى في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها
وكانت بارعة الجمال فلما فرغت من بيانها التفت القاضى الى المدعى عليه
يسأله وما دفاعك ؟ .

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات :

| | | |
|------------|-------|-----------------|
| فتن الشعبى | بـ | رفع الطرف اليهـ |
| فتنته | بدلال | وبخلى حاجبيهـ |

قال للجلواز قر بها وأحضر شاهديهما
فقضى جوراً على الخصم — ولم يقض عليها —

والجلواز فى الفارسية ، هو الحاجب فى العربية أو الشرطى .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان فى دمشق فلما دخل عليه الشعبى ذات يوم ضحك بالرجل ؟ قال : الشعبى لما رفع الطرف إليها ... » وسأل القاضى : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما افترى به على ، قال : أحسنت .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجنى الى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع .. صاحب بريد يكتب الى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاية البريد فى الآفاق يكتبون اليه أيام خلافته بسعر القمح وكل مأكول وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وما يرد بيت المال . وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب . ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة . فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك . وان تغير شئ عن حاله كتب الى الوالى والعامل . وان شك فى شئ مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئاً عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه .

تغير العراق فى الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد اذ كان مجرد قطر من الأقطار ، ولقد بويغ السفاح فى سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩م بالانبار ، ثم انتقل الى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤م) فبدا له أن يبنى عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل الى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة

ايوان كسرى وينقض القصر الأبيض ليدخل الأنقاض فى بناء بغداد ، ثم كف
لكثرة التكاليف وتخير لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) فى
وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر اليها العلماء والشعراء
وأصحاب الآراء وأتاهها الناس من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا .
وبلغ سكانها ، نحو المليونين فى عهد حفيده الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) -
(٧٨٦ - ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التى أنشأها وهى بغداد كان يعوزها ما كمل مجد
أسبارطة : اسم كاسم « ليكرج » وما جمل مجد أثينا ، مشرع مثل
« صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذى يضع تخوم الحضارة التشريعية عند
أساطين مسجد الكوفة فأشخصه أبو جعفر الى بغداد فشخص اليها .
هنالك دعاه الى ولاية القضاء فى بغداد ، وقيل فى الرصافة التى بناها
لولده المهدي . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده
الى جميع كور الاسلام ، أى الى الوظيفة التى أنشئت لأبى يوسف فى عهد
الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبى صلى الله عليه وسلم (القضاة ثلاثة :
قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار . قاض عمل بالحق فى قضائه فهو فى
الجنة ، وقاضى علم الحق فجار متعمدا فذلك فى النار ، وقاض قضى بغير علم
واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا فى النار » كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة
والسلام (يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى
أنه لم يقض بين اثنين فى ثمرة قط) ويعلم حديثه الآخر (ويل للأمرء وويل
للعرفاء وويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيتهم كانت معلقة
بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا) .

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفان اذ نادى عبد الله ابن
عمر (اذهب فاقض بين الناس) قال : أو تعافينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما
تكره من ذلك ، وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : (ان أبى كان يقضى فان أشكل

عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل جبريل ، واني لا أجد من أسأله ..)

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب ابن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن ضنة ، حكما في الجاهلية فلما عرف ما دعى له قال (والله لا ينجينى الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجاني الله منها) .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجاء بالسيف والنطع فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح دارى وقد اشتقت الى لقاء ربى ... ولما رأى الأمير اقباله على ربه حرمة من لقيه وأعفاه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبى الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضى البصرة اياس ، قال اياس : مرحبا وأهلا بأبى مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان قال : ومالك والشهادة ، انما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال : (صدقت) وانصرف من مجلسه راضيا فقالوا له : انه خدعك . انما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها !!

قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضى فى عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة الى ذكاء اياس - مضرب المثل فى الذكاء - ليحتفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وان ما فيه من زكاة وعلو همة ليمنعه من التردد وان به لفطانة وسموا عن الهوى تحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئا مذكورا اذا قيست الى تبعات الفقهاء .. لقد كان شريح يقول (أنا أقضى ولا أفتى) فكان قاضيا لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتيا .

ولكل مقام رجال ، فالقاضي يقضى فى قضية بذاتها ، أما الفقه فيشرع القواعد للقضاء وللمستقاضين أجسعين - ولهذا يربو خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات .

قال سحنون « انا لله . ما أشقى المفتى والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتتخذ به الحقوق أماكنت عن هذا غنيا ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه - على حد تعبير ابن القيم - شريعة عامة تتعلق بالمستفتى وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردى لا يتعدى الى غير المحكوم له .

انما يقوم المفتى فى الأمة مقام النبى ، وكما قال عليه الصلاة والسلام (ان العلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم) .

فليؤد العلماء اذن أمانتهم وليوزعوا فى الناس ما ورثوا من الأنبياء وانها لأمانة تنقض الظهور وتؤدد أقوى الأقوياء على القضاء واذا صح قول الشافعى (من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق) فان أبا حنيفة فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .

وانما هى الوظيفة فى خدمة السلطان يقف أمامها متسائلا .
ماذا عن الغد ؟

انما هى عظات الماضى ينشرها بين يديه . والماضى مرآة المستقبل .

ففى مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندى بمصر رجلا من الأهالى فسجنه القاضي وأخرج الوالى الجندى السجين من سجنه فلم بك من القاضي الا أن ترك وظيفته ... ومن قبل ذلك فى مصر أيضا (سنة ٨٩) أقام القاضي ابن شراحيل الحسنى الحد على كاتب الوالى لشربه الخمر فعطل الوالى قضاءه فاستقال .

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطى فى الصحراء ، مثلما تسيل الآن بالأنبياء موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان يتناقلها أعضاء المؤتمر العام ، الذى ينعقد كل عام ، اذ يلتقى الحجاج فى جوار البيت الحرام .

واستعرض الامام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعا خلت من عمر الدولة العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون الا أن تكون كلمتهم هي العليا ... وهو أدري الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من ابتلاء ، وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم امام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجا ... » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التي يبعث بها القرن الثاني الى القضاة فى كل العصور « فاذا جلس الخصمان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع فى المجلس والاقبال والكلام .. ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون الا أن يأخذا فى فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله (من جعل قاضيا فهو كالغريق ، الى متى يسبح وان كان سابحا) .

وراجع نفسه كرة أخرى اذ يقول لتلاميذه فى داره (أنتم مسار قلبي وجلاء حزني قد أسرجت لكم الفقه وألجمته ... فسألنكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلاله العلم لما صنتموه عن ذل الاستئثار) .

وان منهم من سيرفض القضاء غدا لأبى جعفر كزفر ، وان منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذى أبى حنيفة وكيكا وحفص بن غياث ليلىا القضاء أبى وكيع وقبل حفص فخاصم وكيع حفصا حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرًا مكبرًا وفى سرعة « الأفلام » وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر الى القضاة يلومهم اذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولالة البريد كما يكتبون عن العمال واسترجع قوله

عليه الصلاة والسلام (ان قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل) . وقوله (تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا ..)

فليبتغ الأجر من الله بالعمل في سبيل الله . لا في سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يجاهر باعجابه بالحجاج قائلاً « ليت لى مثله » ! . وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتشيل بهم حتى ليحرف عن القبلة سعيد بن جبير كى يصلى وتضرب عنقه .

إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه الخطر ، فحزم أمره واستخار به فخار له . ورفض ما طلبه اليه أمير المؤمنين . وأصر امام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعلن . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال : انى لا أصلح للقضاء . قال الربيع ابن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ . قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيما نه منى .

فأمر به أبو جعفر الى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء . قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني الى الكذب فإن كنت كاذباً فلا أصلح ، وان كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ...

وظفق أمير المؤمنين ينازله فى الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك ... وكيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به فى الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه الى السجن . وقالوا : ان الوزراء نصحوا أبا جعفر باخراجه من

السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل ، فكانت تلك حالته الى أن مات بعد قليل من الزمان ، وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا : انه ضرب مائة سوطا أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطا . حتى سال الدم على عقبه فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها فقليل له : لو تصدقت بها . قال : أيوجد عندهم الحلال ... ؟

وهكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاما يصنع الحرية بيده صنعا ويخلقها فى تلاميذه خلقا وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صنف .

ان مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاة ولكنها ليست للعباقرة . تلك كانت القضية الأخيرة التى سمع فيها قول أبى حنيفة نقل التاريخ الينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلا كذابا ان صح قول الخليفة فاذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدولة العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء ؟

كانت قد أثقلت مفاخر السنين الطويلة التى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الراى الانسانى فى الأعصر كافة ، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة اذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء !..

ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب ، انها ليسيطر عليها
القلق والعذاب والاسترهاب .

قالوا : دخل شريك يوما على المهدي فقال له المهدي : لا بد أن تجيئنى
الى خصلة من ثلاث : أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندى
أكلة . ففكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع
« فحدثهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبى حنيفة فيما قال لأبى يوسف عن السلطان اذ تفرس فيه أنه
سبلى القضاء .. (فكن منه كما أنت من النار تنتفع منها وتتباعدها ولا تدن
منها فانك تحترق وتتأذى منها ، فان السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه ...)

وما رمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب الا الخطوة الأولى . وقد
خطاها ، فماذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر ... !
لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وان التاريخ
ليعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الامام وأن
الذى كذب هو الخليفة .. !

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليا ، ورفع صوته جهوريا مدويا —
فلن يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن
يقول للمنصور ، ما قاله الزهرى من قبل لهشام بن عبد الملك : والله لو نادانى
مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ،
ما قدر مع الرشيد لأبى يوسف . فلئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين
الدين والدنيا وتعظيم السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيرا من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد
ربع قرن .

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يز نرأيه التاريخ ، فلقد أهمته
وظيفة القضاء ، على ما أسلفنا من المقال وما كان أعظم حاجة البلدة التى

تحمل اسمه (بغداد - مدينة المنصور) الى أبى حنيفة فى حين لم يكن بأبى حنيفة حاجة الى تلك البلدة أو الى الرجل الذى تحمل اسمه ، وفى عصر قال فيه ابن المقفع « الملوك أحوج الى الكتاب من الملوك الى الملوك » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل الدولة مالا يباح .

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذى لا يزول . وفى سيرته من التدلى والسمو مالا مثابه له الا فى سير أفذاذ الساسة والمؤسسين . كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشياءه وتنسبط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر فى تحليقها السماوى فتربطها بطبائع الغاب . والظفر والناب .

فى هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الخيانات ! . اختلف مع زوجته (أروى) أم المهدي ، فجعل لها أن تختار قاضيا فى خصومتها واختارت قاضى مصر غوث بن سليمان فحمل القاضى الى العراق ووكلت خادما لها ليخاصم الخليفة فى مجلس القضاء فقال غوث لأبى جعفر (ان رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم فى مجلسه) فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها فى كتاب الصداق وقضى القاضى ضده .

وكتب الى سوار بن عبد الله قاضى البصرة أن ينظر فى أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض فى يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها الى القائد . فأبى القاضى فكتب اليه (والله الذى لا اله الا هو لتدفعها الى القائد) فكتب اليه سوار (والله الذى لا اله الا هو لا أخرجها من يده الا بحق) واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرخ فقال « ملأتها عدلا » وصارت قضاتى تردنى الى الحق . » وكانت آية اعجابه بحكم غوث بن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بعرضته فردده الى ضفاف النيل .

واستقضى الليث بن سعد امام مصر بل قيل انه عرض عليه ولايتها فأبى .

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصارى اذ استقدمه من المدينة الى الهاشمية .

واستقضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ !...

فهدم الوالى عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ فى صحن الدار فناهجه « ألا تخرج الى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال : « الى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول : يارب يغدو عليك اخوانى غدا علماء حكماء فقهاء وأقدم عليك قاضيا ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض !...

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله ليحملوا معه تبعات الحكم .

كان أبو جعفر بناء مثاليا من بناء الدول وافدا من الميدان — والسنة فى الميدان سنتان — فيه عزمات الفتوة والتفقات المحنك فأخذت يسراه تبطش بخصوم الدولة وانطلقت يميناه فى بسط وايناس تحمل ميزان المعدلة فى الناس ...

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضا كان شحه مضرب الأمثال ، حتى ليسمى بالدوانيقى أو (أبى الدوانيق) والدانق ^١ درهم .

طلب اليه سوار (القاضى) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما أربعون درهما ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر اليه أن ينقص ذا الأربعين عشرة ، وأن يزيد ذا العشرين عشرة ! وانما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدى وهب عشرين ألف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر ستة عشر ألفا !!

وقال له : ان المهدى غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم ليجعل له دارا ومكانا ...

وبينما يصيح بأنه ملأ الأرض عدالة ، ويجمع حوله التواقين الى العلم وعشاق الحكمة ، اذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذى عاهد عليه يزيد بن هبيرة بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوما ، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر : عجباً ممن يأمرنى بقتل مثل هذا ... !

لكن القائل أبو جعفر . فلا عجب اذا كان القاتل أبا جعفر ... لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (فى العهد وفاء لا غدر) ! ودعا الى قصره أبا مسلم الخراسانى الذى أخرجه وأخاه من مخبئتهما فى الكوفة من بضع سنين ليمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى الى سنة ٦٥٥ هـ فى بغداد ، وخلافة تبقى الى سنة ٩٢٣ بمصر ، دعاه الى قصره مبيتاً له بليل ، حتى اذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن على قائد الجيوش العباسية المظفرة احتفى عبد الله بأخيه سليمان بن على بالبصرة فأعطاه المنصور أماناً حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره .

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازى أماناته فكتب اليه (أما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله من على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ والسلام ...)

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس يتمهد هيبتنا فى نفوسهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة . فهى السياسة اذن تدفعه الى البطش وتعميه عن المغفرة ، والقدر عنده مصلحة عليا والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهدده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهدده فكان يكتب للفقهاء ، بالحجاز والعراق يطلب فى كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى مأت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ! وفيما

بينه وبين الله صاحب عهد ! أما فى السياسة فعهدده للدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فاذا آمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذى يستقبل به القضاء ضده ، والنصح العنيف له ...

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه (كلکم یمشی روید . کلکم طالب صید . غیر عمرو بن عبید) وكان عمرو شيخا جريئا يطلق لسانه فى الملوك وفى الصحابة ! قال لأبى جعفر يوما « ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . وذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده ...) فوجهم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة « ان هذا وأشار الى الربيع - صحبتك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل واره بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفى قال عمرو : لا . أدعنا بعدلك تسبخ أنفسنا بعونك . بيا بك ألف مظلمة أردد منها شيئا نعلم أنك صادق ...

ودخل عليه سفيان الثورى فأغلق له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب ثم قال : فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير اذنهم . وقد قال عمر فى حجة حجها وقد أنفق ستة عشر دينارا هو ومن معه . « ما أرانا الا وقد أجحفنا بيت المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه فى المجلس عن ابراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال « رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار عدا . » فقال له أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ . فقال له سفيان « أسكت فانما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرنى بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر « اسكت يا أنوك (أحقق) فوالله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحى منه غير هذا ومالك بن أنس . »

كانت حالة أحكام عرفية فى دولة لم تكد تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حذب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهمى عنده

الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل انه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الخليفة فهي عنده ثورات .

لقد كان يخطب فى نفس العام الذى دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول :
انما أنا سلطان الله فى الأرض .! لقد كان السلطان الذى فى يده أضعاف ما كان بيد الملك الذى قال بعد قرون : « أنا الدولة » ونعنى به لويس الرابع عشر . وكانت خطبة ملأى بدعوى الحق الالهى فى الخلافة . كان يطربه ويطرب بنى العباس أن يقال للرجل منهم : ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون ملكهم قائما على رضا الشعب لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد ، وأشدهم فى هذا أبو جعفر حتى حنى له بنو هاشم أنفسهم هامهم العوالى ..

قال مالك « دخلت على أبى جعفر ورأيت غير واحد من بنى هاشم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقنى الله العافية من ذلك فلم أقبل له يدا ! »

ومن أجل ذلك تراه اذ قيل انه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها ، يرجو ألا يذيع فى الناس أنباء العطاء والاباء ، ففى الرفض ثورة أو استعلاء وهو وهو لا يقبل الثورة ولا يطبق الاستعلاء ، فكيف يعرض عليه القضاء فيقف فى وجهه مرة اثر مرة يقول : لا ...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبى حنيفة أن يأبى وأن يصر على الاباء .

فالدولة التى لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتينى ، ويضرب فيها القضاء هى أخرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و (ان اناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدي أبى جعفر وبين يدي ابن هبيرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه الى جواره تقول : يا نعمان ان علما ما أفادك غير الضرب والحبس لتحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها « يا أمه لو أردت الدنيا

لوصلت اليها ولكنى أردت أن يعلم الله أنى صنت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث الى ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) . وقد حبسته عنى فعجله .

ومكث فى السجن أياما معدودات ثم صعدت روحه الى بارئها .

وهكذا تعدى أبو جعفر الالاح الى الاكراه ، وتعدى الاكراه النفسانى باليمين ، الى الاكراه الجثمانى بالسجن وتعدى ذلك كله الى التعذيب والضرب . فأى جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ ... ومهما قيل عن نبالة الغاية فانها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة . فاذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى أو الجثمانى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقي به ربه أبو جعفر ... !

* * *

كان التجنيد للقضاء نهجا نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده ، وقديما كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل الى الشام (ان خروجه قد أخل المدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به) ولقد كلم أبا بكر فى أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى ذلك عليه ...

لكن عمر ثم يفكر فى سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة ، وانما تداول الفاروق مع الصديق فى ابقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة فى الأمصار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة (محتاجون اليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره) . والفرق بين الخليفين كالفرق بين التوفيق والاندفاع . بين رجل الله ورجل الملك ، وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح :

وعرض المأمون القضاء على تلميذ أبى يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سليمان

الجوزجاني ، فامتنع فأجله سبعا وهدده ان لم يقبل ليعذبه وليحبسه فقال له « يا أمير المؤمنين : قد صح عندي أنك اذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحدا على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهني » . فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين بمرو . فتفكر ساعة ثم قال للجوزجاني . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرجاه في أن يولى أخاه بدلا منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم ، فاستغفاه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء في الوسط العلمي على أنها ابتلاء يفزع منه العلماء ، فزع الأصحاء ، من الوباء ! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية « أبتلى القضاء . وامتنح بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالي لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجيصة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه في فلسطين فقال : انا لله وانا اليه راجعون ! هلك الرجل !.

وهذا قاضيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز الى واليه ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم ابن ربيعة فيولى القضاء أنفذهما . فلما اجتمعا قال اياس للوالى : أيها الرجل : سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين . — وكان لا يجلس اليهما وكان القاسم يفعل ذلك — فعلم القاسم أنهما ان سئلا أشارا اليه فقال : لا تسأل عنى ولا عنه . فوالله الذى لا اله الا هو ان اياسا أفقه منى وأعلم بالقضاء .. فان كنت كاذبا فما ينبغى أن تولينى . وان كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى . قال اياس للوالى : انك جئت برجلى فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال الوالى « أما اذا فهمتها فأنت لها .. » واستقضاء ..

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريح فعتب عليه ابن خيزان

بقوله : « هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا .. وانما كان بلية فى أصحاب أبى حنيفة » .

بل انه ليس بلية فحسب : ولا شفير جهنم فحسب ولكنه (ذبح بغير مسكين) .

ولى سجنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال لها « اليوم ذبح أبوك بغير مسكين » . فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجبت لاعتبار ولاية القضاء ذبحا بغير مسكين ، ان العجب ليوفى على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين ، من تلاميذ سجنون ، يتولى القضاء اذ تكاد السيوف تسلمه للحتوف ..

جلس ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله :

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال : يلزمه أن يلى .. قال الأمير : تمتنع . قال : تجبره على ذلك بجلد . قال الأمير الداهية « قم فأنت هو » ! قال : ما أفا بالذى وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك — وكانت جائزته أربعة آلاف دينار — قال « والله يا أمير المؤمنين لأن يختنقنى السلطان أحب الى من القضاء » .. فقال الخليفة السمع : ما بعد هذا شئ وأجازه بألفى دينار .

وكذلك الذى يؤثر أن يخنقه السلطان ، هذا الذى قيل انه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله اليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع فأراد أبوه أن

يكرهه عليه فسأله أن يمهلّه ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات في الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه .

ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج الى الماء فلم يقدر عليه الا بسناولة الجيران من الكوة ! فقال الوزير الذي حبسه « ما أردنا بالشيخ أبى على الا خيرا أردنا أن يعلم الناس أن في مملكتنا رجلا يعرض عليه القضاء شرقا وغربا وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

وعرضت الجوائز على الامام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض وأشار عليه صاحبه قائلين : لك في هذا ثواب وتحبى سنة قد درست فنهزم قائل « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتمونى عنه » .

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ اليه الشئ ، بعد الشئ ، آثر أن يفتق كمى قميصه فيبيعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز أبادى على أن يتقلد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقا وغربا فامتنع ، فوكل به ، فكتب اليه « ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكنى معك » فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء ، انما أردنا أن يقال انه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناه .

صنع العلماء ذلك — وأمثاله كثيرة فى التاريخ الاسلامى — خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطنى ، بل بلغ التخرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل اذا خرج لقدم الأمير استمساكا بحرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .



هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسمائه أبو حنيفة النعمان ، يحملون آثارهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رؤوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة

فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى
رغبته ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! ..

فلم يكن عدلا لهذا الجبروت الا ذلك الاستعلاء .. ولا كفتا لهذا الطاغية
العظيم الا ذلك الامام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعا ونافعا للعلماء : ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن
حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من ارهاق فى محنة
خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة .

لم يقبل ابن حنبل أن يقول ان القرآن مخلوق .. ودعا نائب المأمون اليه
العلماء كما طلب المأمون يسألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو
كلام الله لا أزيد على هذا .. فوجه به الى المأمون بطرسوس ثم الى الرقة ،
وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن
يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل الى بغداد مصفدا .
ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين شهرا وفى رجليه أربعة أصفاد .. وأخيرا
حمل الى المعتصم والى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر فى فتنة خلق
القرآن أحمد بن أبى داؤد وطائفة من العلماء لينظروه أياما ثلاثة ، فلما كان
اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول
للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم اليه يقول :
انى والله عليك لشفيق .. ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف ، وقال أتريد أن
تغلب هؤلاء كلهم ! ..

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون :
يا أمير المؤمنين أنت صائم . وأنت فى الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جهنم
التي يوعدون !

ثم قال المعتصم : ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع

قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول : أجبنى . ويقول للجلادين : أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت ، وقال له أحد الحاضرين : انا كبيناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك .. وجيء به والدم ينزف منه ، وكان صائما وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة فى الظهر والدم يسيل منه : قالوا : كيف تصلى كذلك . قال « صلى عمر وجرحه يشغب دما » .

تعلم ابن حنبل على أبى حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطى اذ حصل من مصر الى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبى ومات فى أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الاسلام فى كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بنى أيوب بمصر عن الامام القاسم الشاطبى امام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبى بالدعوة وبعث اليه برقعة فيها :

قل للأمير نصيحة لا تركن الى فقيه
ان الفقيه اذا أتى أبوابكم لا خير فيه

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبى وهم يسلكون (شارع الموسكى) الى أقدم جامعة فى العالم ! نعى الجامع الأزهر . ! لكأنما : خطت يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وان أطلقت عليه اسم الأمير .

وفى عهد الأيوبيين أيضا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الاسلام أبا محمد العز بن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم ممالك وتضاف أثمانهم الى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم رعاية السماء وحتتهم منه عناية السلطان ، فاشتراهم السلطان بماله ودفع اليه الثمن ليصرفه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى

فيجيء الى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه الا اذا جاء الى جنبه ، فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون انما قصدك بهذا القول : فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار اكثريت له . فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس باذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التى مات فيها وجه اليه يستحله ، فقال للرسول : قل له أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا . ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار فى سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسى من حبسه فى جب السجن فى أوزجند اذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخى ، كتب أصحابه الى سيف الدولة فى حلب ليعينه . وبكى الشيخ اذ علم ودعا الله قائلاً : اللهم لا تجعل رزقى الا من حيث عودتنى .

واستجاب اليه ربه فمات قبل أن تصل اليه عشرة آلاف درهم ..

وسأل السلطان على بن الحسن النيسابورى : لم لا تجيء عندى ؟ فقال « أردت أن تكون خير الملوك اذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالى وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه لدرس قال له شمس الدين « ان أعطيتنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر » .

الخاتمة

في التاريخ

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقى
لأموت ، وأتم في طريقكم لتعيشوا ،
والله يعلم أى الفريقين أهدى سيلا »
(سقراط)

لم تكن حياة أبى حنيفة وان طالت الا معركة واحدة سلخ فيها الفكر
الانسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية
ولا وسيلة الا الحرية والتسامح ، فى كل أطوارها .

والعالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ،
والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل الى عمارة الدنيا بالنشاط
الفكرى والرخاء المادى .

وبعد أن ذاعت نظريات أبى حنيفة فى الايمان وفى الحرية وفى الاجتهاد
بالرأى استقل بامامة ثلثى الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ورقى سلم المجد
الى أسمى ذرواته ، لينزل فى التاريخ منزلة الامام الأعظم لأهل الاسلام .

ولما ختم حياته فى سبيل الحرية كان كالذى كشف الغيب فوضع نفسه ،
حيث وضعت الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه
عنوانه ..

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسى هو تشييعه لمحمد بن
عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب (المسمى بالنفس الزكية أو
لأخيه ابراهيم ؟ أم أنه لم يحبس الا من أجل القضاء .. ؟

ان من المسلم أن محمدا وأخاه ابراهيم قتلوا فى سنة ١٤٥ حين خرج
محمدا بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه ابراهيم فى البصرة .

واذا كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى
سنة ١٥٠ فانه يكون عجيبا أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد اذ ماتوا بخمس
سنين . وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس ، قوى المراس ، كأبى
جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك
التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما !

لقد كان أبو حنيفة اذا سئل عن على ومعاوية وقتلى صفين أو خلافات
الشيعة والأمويين يقول « أخاف الله أن أقدم على شىء يسألنى الله عنه .. واذا
أقامنى يوم القيامة بين يديه لا يسألنى عن شىء من أمورهم يسألنى عما كلفنى
والاشتغال بذلك أولى » .

وكان المنصور من الناحية الأخرى واسع الصدر بعيد النظر فى آراء خصومه . وأشياع خصومه سمع أن عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة كاتب محمد بن عبد الله فسأله فيما سمع . فقال له عمرو : انه يعرف رأيه فى السيف -- وهو أنه لا يرى الاستعانة بالقوة لتأييد أغراضه -- فطلب اليه المنصور أن يحلف فقال (لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية) فارتضى منه ذلك .. وقنع من زعيم المعتزلة بما كان حريا أن يقنع به من زعيم الفقهاء لو ثبت شيء ضده . أو قامت الشبهة فيه عنده .

ولئن قال نابوليون فى أعقاب (مسكوبا) « لا عدو بعد النصر » أو أمر مملوكه رستم بسقيا الجريح الروسى من الزاد الامبراطورى، فان المنصور كان يصنع صنيعة فى بعض من استيقن تشيعهم لمحمد و ابراهيم .

وكان المفضل الضبى (صاحب المفضليات) من أنصار ابراهيم اذ خرج على المنصور .. فلما أظفره الله بابراهيم ، وأمكنه من المفضل ، عفا المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نجيا ، فصار نجما فى البلاط ، وألقى اليه ولده المهدي يؤدبه ويرعاه .

وكان المنصور فتى جلدا لا تروجه مدلهيات الخطوب . يخرج عند الثورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف ينقم على المقهورين أو على الموتى بعد اذ ماتوا وتصرمت على وفاتهم السنون ، وبعد أن مكن لدولته فبنى مدينته . وملا خزائنه بالمال ودواوينه بالرجال ..

ولم يتم بنيان بغداد الا فى سنة ١٤٩ وان كان المنصور قد انتقل اليها سنة ١٤٦ . بل قيل انه كلف أبا حنيفة بعد مافى سورها من أجر وضربوا مثلا على ذكاء أبى حنيفة ابتكاره طريقة الحساب بعد مافى الذراع من لبنات ومقاس ما فى السور من أذرع .

وقيل ان شقاقا شجر بين المنصور واحدى حليلاته فطلبت العدل بينها وبين سائرهن . فسألها المنصور عن ترضى للحكومة فى هذه الخصومة . قالت بأبى حنيفة فأحضر . وجلست تلك من وراء الستر قال : فليتكلم أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : انها تخاصمنى ، كم يحل للرجل أن يتزوج من

النساء ليجمع بينهن ؟ قال، أبو حنيفة : أربع . قال أبو جعفر : وكم يحل من
الاماء ؟ قال : ما شاء ليس له من عدد .. قال أبو جعفر : اسمعى يا هذد .
قالت : قد سمعت . فانطلق امام أهل الرأى يقول : « يا أمير المؤمنين . أحل
الله لأهل العدل . فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغى ألا يجاوز الواحدة .
قال الله تعالى « فان خفتهم ألا تبدلوا فواحدة » فينبغى أن تتأدب بأدب الله
فنتعظ بمواعظه .. » وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته ، وخرج أبو حنيفة .
فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة التى أدب من أجلها أمير المؤمنين
ذلك الأدب : خمسين ألفا ، وجارية ، ودابة .

فقال للغلام « أقرئها سلامى وقل لها انما ناضلت عن دينى » وما مد
يده الى شيء حتى حصل من بين يديه ..

دخل على أبى جعفر يوما والى جوار أبى جعفر الربيع بن يونس . وفى
رواية أخرى محمد بن اسحق صاحب المغازى . وكان الربيع بنفس على أبى
حنيفة مكاتته ، فابتدره بقوله : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك
فى الاستثناء المنفصل (فلقد كان جده عبد الله بن عباس يقول : اذا حلف
الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين الى سنة فى قول ، وأبدا فى قول
آخر ، جاز الاستثناء من اليمين ، فى حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا
يجوز الا متصلا باليمين ، والاستثناء عنده لا يصح اذا صدر القول باتا فى
المجلس) .

فلم يحزن أبا حنيفة قوله ، بل واجهه العاصفة بالأعصار وقذف فى وجه
الربيع بآية من آياته . قال : يا أمير المؤمنين « ان الربيع يزعم انه ليس لك
فى رقاب جندك بيعة ! قال أبو جعفر : وكيف ؟ قال أبو حنيفة : « يحلفون لك
ثم يرجعون الى منازلهم غيشتئون فتبطل أيمانهم ! ! » وبهت الذى أثار
الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتمس البيعة من كل الأقطار .

وضحك أبو جعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبى حنيفة .

بلى . ولو أبيح الاستثناء المنفصل لم تكذ تقع يمين . اذ كان الناس
يستثنون بدلا من الكفارات ويستثنون حتى لا تطلق نساؤهم .

فى تلك المقلابة أو فى نظائرها دخل أبو حنيفة على أبى جعفر : فوجد
أبا العباس الطوسى — وكان سىء الرأى فيه — فقال لمن حوله فى صوت
خفيض (اليوم أقتل أبا حنيفة) .. وأقبل عليه يقول : يا أبا حنيفة ، ان أمير
المؤمنين يدعو الرجل فىأمره بضرب عنق الرجل . لا يدرى ما هو أيسعه أن
يضرب عنقه ؟ فأجابه الشيخ بأحدى روائع القياس . قال : « أمير المؤمنين
يأمر بالحق أو بالباطل » ؟ قال الطوسى : بالحق . قال : « انفذ بالحق حيث
كان ولا تسأل عنه » والتفت الى من قرب منه وقال (أراد أن يوثقنى
فربطته) .

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق
لا يصدر الا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم
المسئول وانكشف السائل .

هذه الأنباء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفة كان يدخل على المنصور
بالهاشمية أو بمدينة السلام ، اماما رفيع المقام ، مسموع الكلام . قبل أن
يدخلها فى طريقه الى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب
النجاة لأسباب جاءت كذلك فجأة .

وفى الحق أن مدينة المنصور كانت كل شىء للمنصور . وكان أبو حنيفة
فى أخريات أيامه يحمل على مفرقه عدة من التيجان . فكيف تخلو المدينة
الخالدة من الرجل الذى كتب له الخلود .

كيف لا تزدهى به مثلما تزدهى به الكوفة . وكيف تمتنع هذه التيجان
التي تكلل هامة الامام الأعظم عن أن تنتظم فى جواهر التاج الأكبر ! لقد
كان عليه أن يقبل القضاء فى بغداد وأن يحنى رأسه للخليفة والا فان الرفض
ذنب عند أبى جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس احساس (تيزيه) اذ بنى أثينا ، واحساس
رومولوس اذ شاد روما . والذى يشيد مدينة يعشقها في هواها كهوى الغايات
بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضارة جيله ، وفى

سبيل هذا التخليد هانت على البنائين كل التضحيات فهم لا ينشئون مدائن
فحسب وانما ينشئون مدنيات ودنى كاملة ، أين منها الصروح المردة والآثار ..

ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد
للدنيا وأحاطها بالقطائع وبنى الرصافة لولده المهدي وبنى الكرخ ، وكلف
المهدي ببناء الرافقة بل ان أبا جعفر هو الذي بنى الدولة العباسية نفسها .

وانتقلت نزعۃ البناء الى الوزراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل
وجعفر « لا شيء أبقي ذكرا من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا » فاتخذ
كل منهما لنفسه قصرا ، وقيل ان جعفر — فى عهد الرشيد — أنفق على
قصره عشرين مليون درهم غير الأثاث .. !

ومنذ ألفى عام قبل المنصور تنازل « تيزيه » عن ملكه لينشئ « أثينا »
ومنذ ثلاثة عشر قرنا قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسبى
النساء وانما يأمرهم بهدم قراهم ودمساكرهم وأن يقدموا لتعمير « روما » .
وكان « تيزيه » أول من تنازل عن الملك لخير الشعب كما قال سقراط .
وصار « رومولوس » فيما بعد الها يخر له الرومان سجدا الى الأذقان .

وكان سلطان أبى جعفر أعظم من سلطان تيزيه ورومولوس معا . فيجب
أن يعمر بغداد وفق ما يهوى والويل لمن يقف فى الطريق .

فحبس أبى حنيفة انما كان فى سبيل أن يتولى لأبى جعفر قضاء بغداد
وأن يصدع بما يؤمر ولا يرد على الذهن أن يكون ذلك السبب اختراعا .
لأن بغداد كانت قد تم بناؤها . ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولاية
على قضائها لم تك تصلح الا له . وليس تشييد مدينة السلام بحادث عادى
انما هو الحادث الأعظم بدعوة الامام الأعظم وخليق لدى المستبد المطلق
السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب فى نفس الزمان ونفس المكان .

ولو كان الغضب من أجل محمد وابراهيم لأحدث فى أبى حنيفة آثاره
أيام أحدث فيهما آثاره . فلم يكن الامام الأعظم نكرة فينسى خمس سنوات
أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما .

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وإبراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ، فكيف ينال عن أبي حنيفة كل ذلك الزمان وليس من طبيعة أبي جعفر أن ينال .

كان مالك فى أوج مجده العلمى والدينى فى جوار النبى ، اذ قيل انه أفتى بأن بيعة الناس للمنصور كانت مكرهة أى غير ملزمة للناس مما لا منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه ، أو قيل انه سئل عن البغاة ، أيجوز قتالهم ! فقال « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » فقل فان لم يكن مثله ؟ فأجاب « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبى جعفر على المدينة وبين جلد مالك ..

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفا من الله لا خوفا من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يخاف ولم يكن يخفى . والذى يخفى هو الذى يخاف ، كالذى يخاف هو الذى يخفى .

فلو أخذ المنصور على أبى حنيفة مأخذا لناقشه الحساب من فوره جهرة مثلما أخذ محمدا وإبراهيم جهرة . وحبس أباهما فى وضوح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة . فيذر الامام الأعظم فى مسجدها خمس سنوات طويلات يسكب فى دروسه السخط المدمر — لو صح ما يقولون — وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدي أخويه أبى العباس وإبراهيم الامام وأشياهم فى الكوفة نفسها وفى خراسان وفى سائر البقاع .

واذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على أستاذه لخوضه فى ذكر محمد أو إبراهيم فان ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت المقارنة التاريخية للملابسات التى ألمنا بها فى ايجاز .

وأبو حنيفة هو الامام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص وأحاديث ومعتقدات خاصة ، تضمنتها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن

على وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لفقه الشيعة ، بل لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي ان أفئدة الأمة جمعاء تهوى إليهم ، لقد كان « صاحب الأغاني » حفيدا لمروان آخر خلفاء بني أمية .. ومع ذلك كان شيعيا .. !

وليس معقولا أن يكون أبو حنيفة شيعيا بفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الخبيء من أمره ، أو ينعكس أثره على عمله ، في معاركه الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الخليفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هبيرة كان خصامهما حريا بأن يكشف أستار غيبه . بل ان بني العباس كانوا مع الشيعة حتى بويع لأبي العباس في سنة ١٣٣ فهم العليمون حقا بأشياء الخلفاء .

فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه شيئا مما أخذاه على زعماء أهل البيت في بضعة عشر ربيعا كانت كلها النكال للشيعة .

واذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته فان المنصور لا يصل على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبني أمية كما رفضه لبني العباس .. ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هوامع الدولة المقبلة من الشرق من بلاد أجداده ، وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المنصرم ما كان قمينا بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعا الى الهوى ، أو الى الأذى ، أو الى النظام .

انما عافت نفس أبي حنيفة القضاء لأبي جعفر لأنه ليس القاضي المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضي الا ألعابنا يعرض على النظارة فنونا من الظلم على أنها العدل ، وما هي في الحق الا نتاج العبودية والمهانة والابتذال .

والقضاء المسخر كالفكر المشتري والقلم الأجير أتعس ما فى الأسواق
من سلع وعروض .

والرأى هو العرض : يبيع عرضه من يبيع رأيه . ذاك لشهوات الحس
واللمس وهذا لشهوات الفكر والنفس . بل ان من يبيع رأيه يبيع جسده .
فما الصمت أو البياض ، أو اللسان أو البنان ، الا أجزاء من جسم الانسان .

فى بيوع الفكر يغطى المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال
والاحترام ويغلو الفقيه العبد كل الغلواء فى دعوى الاباء وحرية الآراء ،
ويقدر ما يتطلب من الغطاء يحدث من الضوضاء . وكلما ذلت النفس استحکم
مركب النقص ، فكبرت الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقيه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره
فى هواه أو هوى مولاه .

هنالك لا تجد الأشياء ولكن ظلال الأشياء . ولا تسمع الأصوات ولكن
نسمع الأصداء . وتجد حسابا لما ليس فى الحساب . المعلوم يتحكم فيه
المجهول ، والعلل ينتجها المعلول ! وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها .
كالمصلحة العامة والنظام وما هى الا نهمة الدنيا وهماهم العيش وفساد
الضمير .

هنالك تشهد الفقيه العبد فى شوهته ودمايته وانحلال شخصيته كالمثل
الهزيل فى أعقاب الرواية هذنه الذبذبة الدائمة وقبحه الاصطناع . فأمسى
مسحاً شائها ترى دمايته كل الأنظار وهو لا يكاد يراها .

هنالك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء .

هنالك تسيطر الأفكار التجارية ونزعات السوق ، ويتحالف أهل الرذيلة
على أهل الفضيلة ويأخذك العجب وتساءل : لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى
حين أن ذوى الفضل فى أبراجهم لا يتواصلون .

هنالك النفوس الرديئة تحاول أن تطرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال
الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والفضة ، والذهب ، والمصلحة

فى شتى صورها وعروضها ، كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية ، وما هى الا رشى مستورة من رغبة ورهبة أو منظورة ذات لمعان ورنين .

رووا أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفته قضية أخرى كتب بها الى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشير عليه بشيء . فلما انصرف اليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره الى يحيى وقال له : لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غدا ان شاء الله . فقال له يحيى . « وتفعل ذلك صدقا ؟ » قال : نعم . قال له « فالآن هيجت غيظى . فانى ظننت اذ خالفنى أصحابى أنك توقفت مستخيرا لله ، متخيرا فى الأقوال . فأما اذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق ضعيف فلا خير فيما تجيء به ولا فى ان رضيته منك ، فاستعف من ذلك ، والا رفعت فى عزلك » .

فرفع يستعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضيا ممن عناهم « فولتير » بقوله عن قضاة « كالا » : لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قروء ونصفهم قضاة . بل قاضيا ممن توعدهم عمر بقوله « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء ، يوم يلقونه الا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه » .

ليس أبو حنيفة هذا القاضى ولا ذلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوما لم لم تغشنا ؟ .

فقال : لأنه ليس عندى ما أخافك عليه وان قربتى فتنتنى وان أوصيتنى أخرتنى .

والذى يقول هذا للأمير هو الذى يقول للناس : « من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لقد عاش حياته فى ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه أما أن يموت ميتة تليق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاما ليست طويلة فى أقيسة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياة لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يفرق فى الناس أرباح تجارته النافقه آلافا وعشرات آلاف ، آخذا نفسه بالتجرد اليومى من أعراض الدنيا فى زهادة ونسك وتعليم دونها الزهد كله والنسك كله والتعليم كله ، والذي يسلط على نفسه هذا التجريد اليومى من نعيم الحياة إنما يسلط عليها سياط عذاب مستمر لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلى لا النظرى . حرمانا مما فى يده فعلا وهوله . لا مما فى يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما فى يد الناس ، فأنما هو يكسب لشخصه اذ يرى نفسه من أذى نفسه . أما من صبر على الامتحان اليومى ، وقدر على التطهر الكلى ، فقد سما بالوجود الانسانى عن مستواه البشرى ، وأضحى ينظر الى الدنيا من عل ، ويدق من قرب أبواب السماء . ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك النفس التى سمت على أنفس الناس جميعا .

وكما جمع العبادة والزهادة ، قرن العلم بالعمل . فاذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطى يسخر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطى فيبطش به ويدفع الناس الشرطى حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسرى يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى يخشى على الصلاة فيصيح : الصلاة الصلاة . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطى ومع الأمير القسرى وهو شأنه مع ابن هبيرة أمير العراق وهو شأنه مع المنصور أمير المؤمنين . لا ينحنى أمام السلطان فى أى مكان ، ولا يسمح بالعيب فى ذات العلم ولا يسهم فى الظلم كالشيطان الأخرس بالسكوت .

كان قد فرغ من شؤون مدرسته وفتح الباب على مصراعيه لشتى المدارس التى أظهرت فقه الاسلام ، فسلط على الفكر الاسلامى شعاعا من النور هو حسبه . وخلف فى دنيا الفقه اسماء راسيات كأنها الأعلام ، وقضاة كالمملوك ، وعلماء أثبت مجدا من المملوك . فلم يك باقيا ، الا أن يضرب الضربة الكبرى فيهبى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها الى الأعماق، ويخلق بالعلم وبالفكر فى طباق السموات ، ونظير الى الأجيال اللاحقة فكرته الخالدة على ألف جناح . ويعلم الناس بالقدوة والفداء مثل ما علمهم بحياته .

وفى كلمة واحدة يعلمهم بمماته مثل ما علمهم بحياته .

لكنه لا يموت، ميتة « ليكرج » اذ أتم رسالته فى شرائع أسبرطة ومجدها فختتم حياته منتحرا بالكف عن الطعام اعتقادا بأن الزعيم الذى لم يبق له عمل فى أمته جدير بالاختفاء .

ولقد كانت الأمة أحوج ما تكون الى امامها الأعظم ، ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من أكليها . اذا لم يدخل الناس فى حسابهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه فى اللوح المحفوظ ذلك المصير . الأذى هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضة هى فى الغالب رجع الصدى للرأى . فأى أذى واعتراض يجتمعان على الرجل اذا اجتمعت عنده الحرية والرأى وأى امتداد لذلك التناوش من بعيد ومن قريب يخالفه عند مماته بعد خمسين عاما فى معركة الحق .. فى مواجهة الناس ومجاوبة الخليفة ! وكلما لقى من أمره عسرا تدفق من قلبه الاشراق لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للقوى فى كيانه ، أو كأنها السلاح الذى يشق الأرض لتفجر الماء أو ليزداد انثرى بتقليبه ثراء ! !

انما يعيش هؤلاء البشر فى مستوى أعلى من البشر . يتلاقى عنده الانسانى المخلق والربانى الذى يوحى به ، وفى هذه القمم الشواهد يستقبل الملهمون آيات السماء أول من يستقبل كأطراف السحاب فى السماء وذرا العبال فى الأرض أسبق ما يتلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج فى الظلام المحيط .

انهم لا يحسون ما فحسه عذابا ، بل تتوتر أحاسيسهم الى أقصى حدود التوتر اذا عالجوا الصعاب ، وتبيلد الى حد العدم فى محيط العذاب ، فاذا رأوا الأذى وردوه ، واستروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه الا اذا أترعته كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نخب الخلود ..

انها لنعمة من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوما كأنهم من أهل السماء فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوة الحسنة أن الحياة ليست البلهنية ولا الرفاهة . ولكنها كفاح دائم للخير تواق للكمال .

وسجل علماء الاسلام هذه الحقائق بحروف من نور فقضى عليهم بارئهم أن يشقوا لينعم البشر — فكان خلقا اسلاميا خالصا وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنة تلو المحنة فى سبيل آرائهم ويسبقوا بامانتهم الناس وتحملوا خطاياهم . سيق الشافعى من أقصى الجزيرة الى أقصاها ، عاشر عشرة متهمين بالتشيع لقوا مصارعهم على عينه ونجا وحده ، وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة . وذاق ابن حنبل بعض الموت فى خلق القرآن . أما أستاذهم أبو حنيفة فقد مات فى قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضية القضاء . أو قضية تسخير العلماء فى خدمة الخلفاء ! فأظهر أن الزهد والعلم ليسا غاية الحياة وانما العمل هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للأخرة وكان المثل الحق لما يهدى اليه الوحي الذى أشاروا اليه من « أن الله سبحانه أوحى الى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك الى فقد اكتسبت به العز . ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ؟ فقال : يارب وأى شيء لك على ؟ قال : هل واليت فى وليا أو عاديت فى عدوا » .

انما تكون العبادة الحق بالجهد للحق فى الخطوط الأولى للنار لا فى الرهينة ولا فى الاعتزال . روى عن الامام أحمد وغيره أثرا « أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى ملك من الملائكة . أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه فى قط ! » .

بلى . بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العبادة ! هذا يجيبى بن عمر
يرجع من القيروان فى تونس الى قرطبة فى الأندلس ليرد دائقا كان عليه وهو
يقول : رد دائق على أهله أفضل من عبادة سبعين سنة !

انها ضريبة الرضاء النفسانى يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكد
ويكدح ليترك آثاره فيمن يحيط به من العالمين .

واذا كان أبو حنيفة قد جانب السياسة فى حياته لأن رسالته كانت أكبر
من السياسة ، فقد جانبها وهو يختم هذه الحياة ، لأن العالم الحق لا يفتن
بما يفتن به الناس ولا يلقي بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون ان
رجل الدولة ، ليقذف بنفسه فى المهالك يهته أن يفور التنور وتغلى به
القدور ، ليستخرج ما يشاء من معقبات وتناج .

فاذا هاجم البطش المفكر فى عقر داره ، أو فدح الخطب وعت البلوى
أو هددت الحرية أو الفضيلة ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمى
حماءه . انه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وانما غدا القدوة .

ان هؤلاء الفقهاء يحملون من التبعات ما لا يحمل الساسة ولا الزعماء ،
لما يستيقنه ، الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم اذا التمسوا النجاة عندهم
والأمل فى روح الله لديهم .

لما والى الملك اسماعيل الافرنج أيام الحرب الصليبية وسلم لهم صيذاء
وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز
الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله ثم بعث اليه
يعدده ويمنيه ، فقال له الرسول « تعاد اليك مناصبك وزيادة ، وما عليك الا
أن تنكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ الا أن قال « والله
ما أرضاه أن يقبل يدي ، يا قوم أتسم فى واد وأنا فى واد . » .

سبق أبو حنيفة ف ضرب الأمثال للعلماء كما سبقهم فى ميدان الاجتهاد ،
فواجه النوازل فى الفكر بالفكر ، والنوازل فى العمل بالعمل .

اختارت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء

السلطان ، وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن . واتخذ مكانه في هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء .

هنالك تتراءى لك الأعماق التى ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، خلافة للبصر ، وتتجلى لك القمم العالية التى ارتفعت اليها هذه الحياة عند ما ختمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البداية والنهاية حياة هى العمل ، ورسالة هى الخلق والابتداع ، ليست فى تطبيقات كل يوم ، تلك التطبيقات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو فى خدمة السلطان .

انما كانت وظيفة أبى حنيفة وظيفة الشارع نفسه ، لا وظيفة الذى ينفذ الشرائع . والقضاء تنفيذ والتشريع خلق . والمشرع يضع النظام . والقاضى من حرسته وسدته .

كانت وظيفة الامام الأعظم تتصل بالقرآن وبالحديث وبالعقل لاستنباط الأصول والحلول ودفعها فى الغداة الى القضاة والعلماء والحكام والخلفاء والناس كافة يتناولون بها جميعا شؤون الدنيا والدين ، ويقضى بها القضاة فى كل قضية وكل دولة ، وكل جيل ، وكل مكان .

كانت رسالته انشاء المذاهب وانشاء الرجال ، والتوثيق بين العلم والحضارة .

كان هو نفسه الانبعاث التاريخى الذى خلد به الفقه الاسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من بعض منه ، كراسى القضاء . على ما فى وظيفة القضاء من اشراق وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفة القضاء فى خدمة المسلمين واحد من الأئمة الأربعة الذى تقاسم مذاهبهم جمهور المسلمين .

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال « ان العلماء يحشرون مع الأنبياء وان القضاة يحشرون مع السلاطين » .

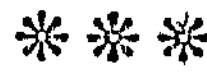
أجل وكما قال أبو حنيفة « ان لم يكن أولياء الله تعالى في الدنيا والآخرة العلماء فليس لله ولي » .

وإذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمة العلماء ، بل كيف بأحق رجل في الاسلام بما قيل عن أرسطو « معلم العلماء » .

فأين . أين .. أين الأمراء من الأنبياء . وأين رجال القضاء من الفقهاء !

أين أبو حنيفة قاضي القضاة ، أو قاضي الكوفة ، أو بغداد أو الرصافة ، لو قدر وكان ، من الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان ؟ .

لقد دالت دولة بني العباس ، ولم يذهب مذهب أبي حنيفة . ونسى الناس أبا جعفر وأولاده وأحفاده . لكن اسم أبي حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا بل كلما واجهوا أمرا من أمور الشرع في شأن من شئون الدنيا أو الدين .



أحسن أبو حنيفة بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد في رجب سنة ١٥٠ . كأنما كان يسابق ملك الموت الى لقاء الله في الصلاة .

جاءته الدعوة الى لقاء الله وهو بين يدي الله يصلي ، وبين يدي التاريخ وهو سجين ، وبين يدي الفكر الانساني وهو يتلقى العذاب من جرائه !

وأخرج من مكان حبسه فحملة خمسة أنفس فأتوا به الى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضي بغداد . وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة . كنت أفقهننا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبرت اذ قبرت الى خير وسنة وأتعبت من بعدك » .

وما فرغوا من غسله الا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، حتى خرج من باب خراسان ، كأنما نودي لهم بموته ،

فاجتمعوا وحرز من صلى عليه فقيل بلغوا خمسين ألفا ، وقيل أكثر وأعيدت الصلاة عليه ست مرات . وقيل ان المنصور جاء وصلى على قبره ، ولم يمكن دفنه الا بعد العصر لكثرة الزحام .

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوما ولما بلغت المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغصوبة قال « من يعذرني فيك حيا وميتا .. ! » .

وقال الحسن بن عماره على القبر « كنت لنا خلفا من مضى . وما تركت بعدك خلفا . ان خلفوك فى العلم الذى علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك فى الورع الا بتوفيق » .

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة الباركة على لسان فقيها ابن جريح فاسترحم وتوجع ثم قال « أى علم ذهب ! » .

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال « رحمك الله . مات ابراهيم النخعي وحماد بن أبى سليمان وخلفا خلفا ، ومت أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفا » وبكى بكاء شديدا .

وفى منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمي (مستوفى مملكة عضد الدولة البارسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقي) على قبر الامام مشهدا وقبة وبني عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبقي قبره مزارا للناس فى طريقهم للحج وعودهم منه . ودفن الى جواره جماعة من نخبة العلماء ، منهم الدامغانى شيخ العراقيين وقاضى بغداد .

ولما دخل الشافعى بغداد قصد الى مقابر الخيزران وصلى على قبر الامام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه — فسئل لماذا خرج عن قواعده ؟ فقال رضى الله عنه « أدبا من هذا الامام أن أظهر خلافة بحضرته » .

وكان يجىء الى قبره كل يوم ويقول : انى لأتبرك بأبى حنيفة .

بلى ، وأية بركة أصابت الشافعى وأصابها الاسلام ، أما الشافعى فقد

تلقى فقه أبى حنيفة مبوبا مؤصلا مقعدا ، كما يتلقى الجوهرى الصناع كنزا من الآلىء والأعلاق . وأما الاسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره الا لمن جاء بعد النبى عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبه المخلصين .

فالفقه الاسلامى فى المعاملات أو العبادات أغلى كنوز الحضارة الاسلامية مكانة وأبعدها أثرا فى الأمة جيلا بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها — وهى لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات : فإن للفقه منها مكان الصدارة .

هو الذى مكن للحضارة الاسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا ، وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الاسلامى ، وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكية والحرية فى الرأى والعقيدة والأصول العامة للشريعة .

ولئن غزا الاسلام هذه الأمم بالسلاح ، فقد استقر فيها بالشرعة .
لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا . وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضا .
ان الاسلام ينتصر وان هزم المسلمون !

وحيث وجد الاسلام وجد الفقه الاسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى غير جزيرة العرب ممن سجلوه وخلدوه . يتسابقون فى حلباته ذلك السباق المترامى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى ، حتى اذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح انتاجهم يثير الاعجاب .

ولو عجز الفقه الاسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمة فى هذه الأقطار المترامية لخيف أن تعمد الى اطراحه لتعيش . واذن لبخمت الحضارة الاسلامية نفسها فى كل مكان !

فأى فضل على الأمة يلقي به ربه ويلقى به التاريخ رجل مكن للفقه الاسلامى أن يكون عصرياً فى كل عصر . واقليميا فى كل اقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه .

لا عجب ان قال بعضهم ان النبى قد بشر به . فهو ان صح أو لم يصح ضرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد . جدير بتفسير المفسرين لحديث (لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس) وغيره ، تفسيراً ينظمه فى سلك المأمولين للإصلاح . وجدير بما قال بعض أئمة الزهد (يجب على أهل الاسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه) .

لقد كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال للمسلمين (اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد) وكان عمر مؤمناً ممن عناهم النبى بقوله (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .

فلقد جعل النبى عماراً وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كأبى بكر وعمر .

واذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمر أنشأ الامبراطورية الاسلامية فان رسوليها الى العراق — عماراً وابن أم عبد — قد أديا رسالتهما نعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفراروق ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الاقليم العظيم للعالم الاسلامى فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع فى أرجائه الأسلوب الجديد ويحمى الشريعة الاسلامية من أن تصيبها آفة القصور عن مطالب العصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الاسلام من الردة عند الصيحة الأولى على هدى من أبى بكر ، ان أباً حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى اذ نادى بذلك الحوادث وهو على هدى من عمر وعهد من ابن مسعود .

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثال فى الاجتهاد عند

أساطين مسجد الكوفة ليئول مجلسه بعد قرن كامل الى أبى حنيفة الذى نهج نهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذى أوصى به الرسول .

نفحات من السماء جاءت بأبى حنيفة فى أوانه ، كما جاءت بابن الوليد فى ابانه ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده ووفى عهده (.. انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

فى سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعى ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الامام الا اذا حبتها هذا الامام .

كان نابليون يقول عن نفسه (كل شىء ينتهى على بعد ستة أقدام تحت الثرى) ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا انه لا يصدق على المفكرين .. فأولئك يبدأ كل شىء بالنسبة لهم عند ذلك . انهم يذرون أجسادهم تحت الثرى ويبعثون أفكارهم الى الأفلاك ، وأسماءهم الى الأزل ، لتصير حديثاً فى فهم التاريخ وطيننا فى سمع الزمن . أو كما قال هيجو : أيها العظماء : هل تريدون المجد ؟ .. موتوا !

استقبل أبو حنيفة وهو سجين فى السبعين من عمره ، حياة الخلود كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، فى السبعين من عمره ، محكوماً عليه بالاعدام ، فنظر الى قضاة وقال (.. سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى لأموت ، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سيلاً) .

الفهارس

فهرست المراجع المهمة

- ١ — مناقب الامام الأعظم الموفق بن أحمد المكي
- ٢ — مناقب الامام الأعظم ابن البزاز الكردي
- ٣ — عقود الجمان في مناقب { الحافظ محمد بن يوسف بن علي
الامام الأعظم أبي حنيفة { ابن يوسف الدمشقي الصالحى
النعمان

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت ن ١٠٧

- ٤ — الخيرات الحسان في مناقب
أبي حنيفة النعمان ابن حجر
- ٥ — الانتقاء في فضائل الأئمة
الثلاثة الفقهاء للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر
- ٦ — تاريخ بغداد أبو بكر الخطيب
- ٧ — الرد على أبي بكر الخطيب الملك أبي المظفر عيسى بن عبد الملك
العادل سيف الدين أبي بكر بن
أيوب
- ٨ — تأنيب الخطيب على ما ساقه
في أبي حنيفة من الأكاذيب محمد زاهد بن الحسن الكوثري
- ٩ — احقاق الحق بابطال الباطل
في مغيث الخلق وأقسام
المسالك في بحث رواية مالك
عن أبي حنيفة ورواية أبي
حنيفة عن مالك محمد زاهد بن الحسن الكوثري
- ١٠ — حياة الامام أبي حنيفة الأستاذ سيد عفيفى

- ١١ — الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى الحجوى
- ١٢ — وفيات الأعيان ابن خلكان
- ١٣ — الفوائد البهية فى تراجم الحنفية اللكنوى
- ١٤ — طبقات الفقهاء أبو اسحق الشيرازى
- ١٥ — طبقات الشافعية الكبرى السبكى
- ١٦ — الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ابن فرحون — المالكى
- ١٧ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة أحمد تيمور باشا
- ١٨ — فجر الاسلام أحمد أمين بك
- ١٩ — ضحى الاسلام أحمد أمين بك
- ٢٠ — تاريخ التشريع الاسلامى الخضرى بك
- ٢١ — تاريخ التشريع الاسلامى الأساتذة عبد اللطيف السبكى
ومحمد على السائس ومحمد يوسف البريرى
- ٢٢ — تاريخ الفقه الاسلامى دكتور على حسن عبد القادر
- ٢٣ — الموافقات فى أصول الشريعة الشاطبى
- ٢٣ — اعلام الموقعين ابن القيم
- ٢٥ — مجموعة رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب المصرية مفتى زاده
- ٢٦ — مجموعة رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب المصرية عبد الغنى النابلسى

| | | |
|------|--|----------------------------|
| ٢٧ — | رفع الملام عن الأئمة الثلاثة | ابن تيمية |
| ٢٨ — | الأعلام (دار الكتب المصرية) | |
| ٢٩ — | رسالة فى مدى استعمال | |
| ٣٠ — | حقوق الزوجية | دكتور السعيد مصطفى السعيد |
| ٣١ — | علم أصول الفقه | الأستاذ عبد الوهاب خلاف |
| ٣٢ — | الاسلام وأصول الحكم .. | الأستاذ على عبد الرازق |
| ٣٣ — | السياسة الشرعية | الأستاذ عبد الوهاب خلاف |
| ٣٤ — | السياسة الشرعية | الأستاذ محمد البنا |
| ٣٥ — | الفقه على المذاهب الأربعة | |
| ٣٦ — | طبعة وزارة الأوقاف | الشيخ عبد الرحمن الجزيرى |
| ٣٧ — | رد المختار على الدر المختار | ابن عابدين |
| ٣٨ — | المجموع شرح المذهب | محيى الدين بن شرف النووى |
| ٣٩ — | مجلة القانون والاقتصاد | |
| ٤٠ — | السنة الأولى | الأستاذ أحمد بك ابراهيم |
| ٤١ — | مجلة القانون والاقتصاد | |
| ٤٢ — | السنة الثانية | دكتور محمد كامل الغمراوى |
| ٤٣ — | مجلة القانون والاقتصاد | |
| ٤٤ — | السنة الخامسة | الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة |
| ٤٥ — | مجلة القانون والاقتصاد | |
| ٤٦ — | السنة السادسة | الأستاذ عبد الوهاب خلاف |
| ٤٧ — | مجلة القانون والاقتصاد | |
| ٤٨ — | السنة السابعة | الأستاذ عبد الوهاب خلاف |
| ٤٩ — | The moslem Creed. Wensinck. Cambridge 1932 | |
| ٥٠ — | Le Dogme de l'Islam. Godziher - Paris 1920 | |
| ٥١ — | شرح الأحكام الشرعية .. | محمد زيد الأياني بك |
| ٥٢ — | الخراج | أبو يوسف |
| ٥٣ — | الفهرست | ابن النديم |

| | |
|------|--|
| ٤٦ — | تاريخ الطبرى الطبرى |
| ٤٧ — | تاريخ الدولة العباسية محمد الخضرى بك |
| ٤٨ — | تاريخ الاسلام حسن ابراهيم حسن |
| ٤٩ — | الطبقات الكبرى ابن سعد |
| ٥٠ — | فلسفة الاسلام فى المشرق والمغرب محمد لطفى جمعة |
| ٥١ — | الامامة والسياسة ابن قتيبة |
| ٥٢ — | الكتاب والوزراء الجهشيارى |
| ٥٣ — | العقد الفريد لابن عبد ربه |
| ٥٤ — | دائرة المعارف الاسلامية .. |
| ٥٥ — | دائرة معارف البستانى |
| ٥٦ — | الأمالى أبو على القالى |
| ٥٧ — | المقدمة ابن خلدون |
| ٥٨ — | Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929 |
| ٥٩ — | الحيوان الجاحظ |
| ٦٠ — | مناقب الامام الشافعى محمد بن عمر الرازى |
| ٦١ — | القضاء فى الاسلام ابن عرنوس |

فهرست

صفحة

| | |
|----------------------------------|-----|
| المقدمة .. | ٣ |
| الباب الأول — الرجل .. | ٧ |
| الباب الثاني — التاجر .. | ٢٩ |
| الباب الثالث — في المسجد .. | ٤٥ |
| الباب الرابع — المفكر .. | ٦٥ |
| الباب الخامس — التلاميذ .. | ٨٥ |
| الباب السادس — في العراق .. | ١١١ |
| الباب السابع — في الكوفة .. | ١٢٧ |
| الباب الثامن — في الفقه .. | ١٣٧ |
| الباب التاسع — امام أهل الرأي .. | ١٥٩ |
| الباب العاشر — في القضاء .. | ١٨٣ |
| الخاتمة — في التأريخ .. | ٢٠٧ |
| فهرست المراجع .. | ٢٢٨ |